سلسلة الآثار الكاملة ـ ٢٥ـ

الإمام السجّاد عليه السلام
أجمل روحٍ عابدة

الشهيد الدكتور علي شريعتي

ترجمة

إحسان صوفان

مراجعة

حسين علي شعيب

دار الأمير

الإمام السجّاد عليه السلام
أجمل روح عابدة

إسم الكتــاب : الإمام السجّاد(ع)... أجمل روح عابدة

إسم المؤلــف : د. علي شريعتي

إسم المترجم : إحسان صوفان

تنضيـد وإخـراج : زهرين

تصميم الغلاف : بشير محمد

الترقيم الدولي : ISBN 978-9953-494-17-3

الطبعة الأولـى : ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م

الطبعة الثانية : ١٤٢٨ هـ ـ ٢٠٠٧ م

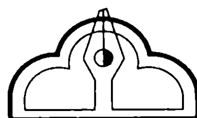
(بعد تدمير الدار خلال حرب تموز ٢٠٠٦ م)

النـاشـــــــــر : دار الأمير للثقافة والعلوم ش.م.م

التوزيع في العراق:

دار الباقر ـ النجف الاشرف هـ :07801263579





مؤسسة نشر اثار
الدكتور علي شريعتي

تلفاكس: 2232729 21 98 +
ص.ب: 6516-19395 طهران
www.shariati.com

دار الأمير للثقافة والعلوم
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر ـ بيروت ـ لبنان

تلفاكس: 49 64 27 1 961 +
ص.ب : 113/5551 الحمرا ـ بيروت ـ لبنان

Website: //http:/www.daralameer.com
E-mail: daralameer@daralameer.com

وتستمر دار الأمير ...

إذا كانت مسؤولية المثقف تجاه أمته وتحديات لحظتها التاريخية هي الهم والرسالة التي حملها علي شريعتي، فإن نشر فكر الوعي الحضاري بدوره مسؤولية، إذ كيف يصل هذا الفكر للناس دون ناشر مسؤول؛ يعطيه العناية ويكفل أن يظل هذا الزاد الثقافي حاضراً في الوعي؛ متاحاً للأجيال لتنهل منه في صياغتها لرؤى التجديد والنهضة وتستثمره في حركة التغيير وصناعة المستقبل.

وقد وعت دار الأمير هذه المسؤولية منذ تأسيسها عام ١٩٩١م، وحملتها بأمانة، وتحملت تبعاتها المادية والمعنوية في مواجهة حسابات السوق وفكر الجمود، ورغم الدمار الكُلّي الذي لحق بالدار في حرب تموز ٢٠٠٦م، والذي كان أول ضحاياها كتب علي شريعتي التي أحرقتها صواريخ الهمجية الصهيونية؛ حين دكّت مقرّ دار الأمير في بيروت ومعرض الدار في بنت جبيل، فإن إرادة البقاء وعزيمة الإنتصار بقيت متوهجة، وها هي دار الأمير تستأنف دورها ونضالها بعد أشهرٍ معدودةٍ من العدوان، وتقدم من جديد فكر شريعتي في إخراج متميز، وتنهض من بين الركام مستعيدة دورها المسؤول في نشر ثقافة العودة إلى الذات، والنهضة، والمقاومة في مسيرة الفلاح التي شعارها: **إلهي علمني كيف أحيا..، أمَّا كيف أموت، فإني سأعرفه**. والحمد لله الذي نصر عبده.

محمد حسين بزي

شريعتي في آراء المفكرين

(*) هذا الفصل - شريعتي في آراء المفكرين - قام بإعداده وترجمته الأستاذ موسى قصير.

الإمام السيّد موسى الصدر(١)

الذي صلى على جثمان شريعتي في دمشق ١٩٧٧م

كان لنا صديق، زميل ـ قائد من قادة الفكر الإسلامي، هو الدكتور شريعتي، توفي في هذه الفترة الأخيرة. وفي «الرسالة» التي ستطبع إن شاء الله بعد يومين أو ثلاثة، يوجد له نعي وصورة، والعدد القادم من الجريدة سيخصص له بإذن الله.

أحببت أن أنقل للإخوان، صورة عن هذا الرجل، وألقي

(١) السيّد موسى الصدر غنيّ عن التعريف، أسس حركة المحرومين في لبنان، والمجلس الإسلامي الشيعي الأعلى الذي ترأسه، وكان له الدور الأهم في إطلاق وتشريع المقاومة المسلحة ضد «إسرائيل»، ورفع شعار «إن شرف القدس يأبى أن يتحرّر إلاّ على أيدي المؤمنين» فمن هذا المبدأ عمل الإمام الصدر على بناء القاعدة الإيمانية العريضة على المستوى اللبناني، وناضل إلى جانب الإمام الخميني الذي كان يعتبره إبناً من أبنائه.

هذا النص أعلاه جاء في الإحتفال التأبيني الحاشد، الذي أقامه الإمام الصدر تأبيناً للدكتور علي شريعتي في الكلية العاملية في بيروت، وعلى أثره سحب الشاه المقبور الجنسية الإيرانية من السيّد الصدر. (الناشر).

بهذه المناسبة ضوءاً على البعد العالمي لحركتنا.

الدكتور شريعتي، أبوه رجل دين غير معمم، إسمه الشيخ محمد تقي شريعتي. وهو رجل فاضل أسس مؤسسة في خراسان اسمها «مجمع الأبحاث القرآنية». وأنا ألقيت محاضرات هناك، قبل عشر سنوات تقريباً.

الدكتور شريعتي، هو إيراني قروي من قرية «مازينان» في إيران، قرب «كوير» يعني الصحراء في إيران. تخرّج من جامعة «السوربون»، واختصاصه «علم الإجتماع الديني». وعاد إلى إيران، وكان يعطي دروساً في جامعة خراسان، ثم في جامعة طهران، ثم تحوّل إلى داعية ديني.

له أكثر من مئة وخمسين كتاباً. كتبه، محاضراته، في الواقع، محاضراته أربع ساعات، خمس ساعات، ست ساعات، سبع ساعات إرتجال، تُسجل وتُطبع وهكذا.

أديب شامخ، فكره إسلامي نضالي منفتح. إسلاميته، وطبقيته، وموقف رجال الدين، لم تجعل من دعوة الدكتور شريعتي، دعوة محافظة، رجعية، يمينية كما هو التقليد، لأن الدعوة الإسلامية، تعتبر في كثير من الأوساط، دعوة محافظة على الأقل، لكن دعوة الدكتور شريعتي للإسلام، دعوة تقدمية، ثورية، نضالية، أو ما نسميه نحن دائماً في إجتماعياتنا، دعوة

حركية، وليس دعوة مؤسساتية. يعني ليس الإسلام دكاناً يجب أن نحتفظ بمكاسبه، ونأخذ لأجله من الناس، ونسخّر الناس لخدمته، كما حصل بالنسبة للمؤسسات الدينية.

المؤسسات الدينية اليوم، لها أموالها، ولها أوقافها، ولها رجالها، ولها شؤونها وبروتوكولاتها، ولها خصوماتها، ولقاءاتها، ولها مكاسبها. تماماً مثل الإتحاد السوفياتي أو الصين، بعدما تحولوا إلى دول، ونسوا كونهم حركة إنقلابية عالمية. فبدأوا يفكرون بالإحتفاظ بمكاسبهم، ولأجل الإحتفاظ بهذه المكاسب، يجب التحالف حتى مع الشيطان، أو مع نصف الشيطان، أو مع ربع الشيطان بالتالي، فنرى أن الصين الشيوعية اليوم تلتقي مع القوى اليمينية في العالم للإحتفاظ بمكاسبها وللمنافسة مع الإتحاد السوفياتي، والإتحاد السوفياتي نفس الشيء.

إذاً حركة إنسانية، في مرحلة من المراحل كثيراً ما تتحول إلى مؤسسة، متى؟ عندما تشيخ. الحركة في بدايتها شابة، ناشطة، متحركة، تُخيف، تقتحم، تتقدم، إلى أن تنتهي أنفاس المؤسسين، فتشيخ، وتفكر كيف تحفظ رأسها، ولا تصطدم مع الناس، تتحالف مع هنا، وهنا، تفكر بالإحتفاظ بالمكاسب.

الدكتور شريعتي، في أحد كتبه، يقول: في فرنسا، رحت أشتري مجلة «جون أفريك Jeune Afrique، فوجدت أن

الأمن الفرنسي قد جمع نسخ هذه المجلة الفنّيّة الإفريقية، قلت في نفسي: يا سبحان الله! فرنسا، معقل الحريات، مركز جميع أنواع الدعوات، من الشيوعية المتطرفة، إلى التروتسكية، إلى غير ذلك، إلى اليمين إلى الوجدانية، والوجودية، وكل أنواع الفكر؛ كيف فرنسا هذه تخاف من مجلة «جون أفريك» فتجمعها من السوق؟

السبب أن هذه مجلة شابة، حركة جديدة، تقتحم وتُخيف، بينما الحركات الأخرى كادت تتحول إلى مؤسسات لها وجودها.

طبعاً الدكتور شريعتي، كان أحد قادة الفكر الإسلامي في العالم. أفكاره قيمة جداً، وكان يحضر درسه الأسبوعي، حوالي ستة آلاف طالب وطالبة جامعيون أو متخرجون، في مؤسسة معينة باسم «النادي الحسيني للإرشاد».

طبعاً حُورب من قبل الحكم في إيران، وحُورب أيضاً من قبل مجموعة من رجال الدين، الذين يعتبرون الإسلام حكراً عليهم، وميراثه من حقهم، وهم وحدهم يفهمون الدين، ولا يحق لأحد أن يفهم غيرهم.

هذا الرجل بالفعل كان مصدر الإلهام، والتفكير والعطاء لكثير من الحركات الإسلامية، من جملتها حركتنا. ونحن

سنحاول؛ بإذن الله، بالإضافة إلى العدد القادم من «أمل ورسالة»؛ أن نخصص عدداً نلخص فيه أفكاره، ثم نترجم ونطبع أفكاره وكتبه ومحاضراته، حسب التيسير وفي حدود الإمكان، في لبنان، بإذن الله[١].

بدون شك، إن التيار الذي كان يحترم ويكرّم الدكتور شريعتي، كان تياراً ساحقاً، تقريباً الشبيبة المسلمة في إيران، وهو الذي جعل التيار الإسلامي في إيران أقوى من التيارات الحزبية الأخرى. يعني الجامعة كانت بيدهم، والتأثير الإسلامي كان عميقاً في المجتمع الإيراني، حتى أن الشيوعيين استسلموا للحكم، وبقيت الحركة الإسلامية تقاوم وتدافع وتناضل.

الدكتور شريعتي، من خسائر الفكر الإسلامي، والفكر الحركي، الفكر النضالي المعتمد على الإيمان بالله سبحانه، ولذلك نحن نعتبره فقيدنا وخسارتنا، ونكرّمه في هذا اليوم، يوم علي، مولاه ومولانا، ونبعث إلى روحه أيضاً، ثواب الفاتحة)[٢].

---

(١) السيّد موسى الصدر كان أول من نقل كتب شريعتي ومحاضراته إلى اللغة العربية، وأول كتاب كان «الشهادة» والذي قمنا بإعادة نشره ضمن الأعمال الكاملة لشريعتي، ولكنه ـ السيّد موسى الصدر ـ لم يضع إسمه على الكتاب كمترجم أو مُعرّب. (الناشر).

(٢) مسيرة الإمام الصدر. الجزء ١١ ص١٥٤ ـ ١٥٥ إعداد وتوثيق يعقوب ضاهر ـ دار بلال ـ ط١، سنة٢٠٠٠.

ذكريات الدكتور مصطفىٰ شمران عن مراسم أربعين الدكتور شريعتي في لبنان

عندما جاء الدكتور إلىٰ أوروبا أخبروني أنه في باريس وأنه يريد أن يراني، وان الإخوة يعدّون جوازات سفرهم للخروج أيضاً للقائه، وخططنا لنأتي به إلى لبنان لنوجد في لبنان مركزاً فكرياً كبيراً لجميع مسلمي العالم، وندعو المفكرين الكبار من أمثال الدكتور شريعتي لنسلمهم هذا المركز الفكري والعلمي. لكن في الوقت الذي كنّا نعدّ أنفسنا للسفر ولقائه بلغنا خبر استشهاده[١]. وفي خضم الضغط الروحي الشديد أحسسنا بالواجب لتأمين مدفن له قرب مرقد السيدة زينب، ذلك لأن نقل الشهيد الدكتور شريعتي إلىٰ إيران

---

(١) المرحوم شريعتي توجه أولاً إلى بلجيكا ومنها إلى فرنسا وبعدها مباشرة إلى لندن حيث كانت وفاته رحمه الله. (الناشر).

في تلك الظروف لم يكن أمراً مناسباً، وعليه فرغم الألم والغم والأسىٰ بذلنا جهدنا لإيجاد سكان مناسب لدفنه قرب مرقد السيدة زينب، وإننا في هذا المجال مدينون بالدرجة الأولىٰ لقائد المسلمين الشيعة في لبنان الإمام موسىٰ الصدر لأنه منذ أن بلغه خبر استشهاد الدكتور شريعتي أبدىٰ استعداده للمساعدة ولحل أي معضلة تواجهنا، وأكد استعداده لتنفيذ أي فكرة نستحسنها، وهكذا فعل، حيث اتصل بالحكومة السورية واشترىٰ زاوية من روضة السيدة زينب، وكانت قد أعدت لأحد شخصيات سورية لتخصص لدفن الدكتور شريعتي، وحصل علىٰ إجازة لإدخال جسد الشهيد الدكتور شريعتي إلىٰ الحرم، وبقي الجسد من الصباح إلى الظهر، وأمَّ الإمام موسىٰ الصدر الصلاة علىٰ جنازة الدكتور، بحضور ومشاركة عدد كبير من الإيرانيين والشخصيات والزعماء اللبنانيين والسوريين والمقاومة الفلسطينية، ولعلها كانت من أكثر اللحظات إيلاماً وتأثيراً عندما نقل جسد الدكتور علي شريعتي من ضريح (الحرم الداخلي) السيدة زينب إلى المقبرة، وقد أمر الإمام موسىٰ الصدر بوضع جسده علىٰ الأرض، فتحدث عدد من الشخصيات الفلسطينية واللبنانية وغيرهم، ثم أعيد حمل الجسد إلى المقبرة، وقد حمل تابوته أفضل وأقرب أصدقائه، ثم أدخل القبر، وصلىٰ الإمام موسىٰ الصدر عليه صلوات

مختلفة، وأهال أصدقاؤه على جسده التراب، وبدأ السيد دعائي[1] (الصديق القديم) بقراءة مقاطع من كتاب الشهادة للدكتور شريعتي بصوته الشجي، ثم تحدث الدكتور يزدي عن حياة الشهيد الدكتور علي شريعتي بالتفصيل، ثم ألقيت أنا المرثية المعروفة التي تثير الأحاسيس والعواطف العرفانية، ثم أسرته وابنه إحسان، واجتمعنا هناك وبقينا في الشام عدة أيام في منطقة السيدة زينب، وكان دأبنا هو زيارة قبر الدكتور شريعتي وتذكر ذكرياته الجميلة والمرّة، ثم توجهنا إلىٰ بيروت.

في بيروت قررنا أن نقيم مراسم أربعين الدكتور علي شريعتي، وأن ندعو شخصيات بارزة وقادة ثوريين من أنحاء العالم للمشاركة في تلك المراسم، فشاركت فيها (١٨) منظمة ثورية منها: المنظمات الفلسطينية المقاومة، منظمة تحرير ارتيريا، البوليساريو من الجزائر وحركة أمل وغيرهم. مما أثار مخاوف النظام الإيراني الملكي، ووضعت الحكومة الإيرانية كل امكاناتها في لبنان تحت تصرف سفير إيران الجاسوس منصور قدر ليمنع إقامة تلك المراسم. وكان مقرراً أن يقام

---

(١) السيد دعائي عضو مكتب الإمام الخميني، سفير إيران في العراق بعد انتصار الثورة الإسلامية، ورئيس تحرير صحيفة اطلاعات حالياً، ومن الشخصيات التي لعبت دوراً سياسياً هاماً من خلال مجلس الشهورى الإسلامي وغيره من المناصب (المترجم).

الإحتفال في قاعة الأونيسكو التي تعتبر أكبر قاعة رسمية في لبنان، ووزعت بطاقات الدعوة ونشرت الإعلانات علىٰ أساس قاعة الأونيسكو، لكن في اليوم الأخير أعلنت الحكومة اللبنانية عن معارضتها لذلك، ووقع شجار شديد بين الإمام موسىٰ الصدر ووزير الثقافة اللبناني، وكان واضحاً أن الحكومة الإيرانية ومنصور قدر السفير الإيراني الخبيث في لبنان قد مارسوا ضغوطاً عبر الرشوة والقوة لدفع الحكومة اللبنانية لإلغاء الإحتفال. وفي اللحظات الأخيرة استبدل مكان الاحتفال ليقام في المدرسة العاملية وسط بيروت، وهي مدرسة للمسلمين الشيعة. ووقف جمع من شبان أمل في الشوارع المؤدية للإحتفال وأمام الأونيسكو لإرشاد الضيوف المشاركين إلىٰ مكان الاحتفال، وقد شارك في تلك المراسم آلاف اللبنانيين وامتلأت القاعة وأنحاء المدرسة وساحتها وجدرانها والطرق المحيطة بها بصور الشهيد شريعتي وآية الله الخميني والطالقاني وشهداء الثورة الإسلامية في إيران، وكنت قد رسمت عدة لوحات كبيرة لصور الدكتور شريعتي. وكان من بين الشخصيات البارزة التي شاركت في الإحتفال (ياسر عرفات) قائد الثورة الفلسطينية الذي أظهر تكريمه واحترامه الشديد للدكتور شريعتي ولأسرته المحترمة، وألقىٰ واحدة من أشد وأقوىٰ خطبه، قال فيها أن أمل هي فتح وفتح هي أمل.

وتحدث المفكر الفلسطيني (شفيق الحوت) الذي دافع عن الثورة الإيرانية واعتبرها حركة فريدة من نوعها، وكانت الكلمة الأهم لسماحة الإمام موسىٰ الصدر الذي أثر بكلامه علىٰ الكثيرين، ثم تحدث من الإيرانيين (صادق قطب زاده) ممثلاً الجامعيين والثوريين في الخارج، وأخيراً تحدث (إحسان) إبن الدكتور علي شريعتي فختم الاحتفال بكلمته المحببة.

وعندما فشل المتآمرون اللبنانيون عن منع إقامة هذا الاحتفال الكبير، وفشلت مخططاتهم، قام زعيم الحزب الحليف لأمريكا والمتعاون مع إسرائيل[(١)] بأشد هجوم إعلامي ضد الإمام موسىٰ الصدر واعتبر الدكتور علي شريعتي شيوعياً. واتهم الإمام موسىٰ الصدر بأنه أقام ذلك الاحتفال الكبير من أجل رجل شيوعي. وردّ عليه الإمام موسىٰ الصدر من خلال الصحف مؤكداً أن الشهيد شريعتي كتب أكثر من (١٥٠) كتاب إسلامي وفلسفي، وأنه من مفاخر المفكرين المسلمين، فكيف يتهمه أحد بالشيوعية[(٢)]. وفي اليوم التالي ردّ الرجل بقوله إن

---

(١) يقصد كميل شمعون زعيم حزب الوطنيين الأحرار الذي كان زميلاً للشاه في محفله الماسوني، وأحد حلفائه، وكانت هناك لقاءات في طهران بين الرجلين (المترجم).

(٢) معلومات شمعون عن شريعتي كان قد استقاها من منصور قدر في مكالمة هاتفية بينهما (المترجم).

الدكتور شريعتي شيوعي مائة بالمائة، بل مائة وخمسون بالمائة، ووزع تهمه وشتائمه هذه المرة علىٰ الإمام موسىٰ الصدر شخصياً، وفي نفس اليوم قامت القوات اليمينية الفاشية[١] في جنوب لبنان العميلة لإسرائيل برفقة القوات الإسرائيلية بقصف مواقع المقاتلين المؤمنين في جنوب لبنان وخاصة في بلدة (الطيبة) فدمرت مقراً لهم، فتوجهت بنفسي في اليوم التالي لزيارة المنطقة.

وعندما عدت من زيارة الجنوب التقيت بالإمام موسىٰ الصدر فجاء إليه رئيس جهاز الأمن اللبناني، وهو لا يعرفني طبعاً، فأخبره أن الحكومة الإيرانية طلبت منّا تسليمها الإيرانيين (صادق قطب زاده والدكتور شمران) فوراً. فأجابه السيد موسىٰ الصدر أن (قطب زادة) ذهب إلى سوريا، وليس في لبنان، والدكتور شمران في جنوب لبنان في متاريس ومواقع المقاتلين الذي يواجهون إسرائيل، يمكنكم الذهاب إلى الجنوب واعتقاله. ولم يكن حينها للحكومة اللبنانية وللجيش اللبناني حضور هناك، وكانت تلك صفعة وجهت لمسؤول الأمن اللبناني الذي جاء لينفّذ طلب السفير الإيراني (منصور قدر).

وفي نفس الليلة اصطحب الإمام الصدر (صادق قطب

---

(١) هذه القوات كانت تابعة لشمعون وتنسق مع إسرائيل (المترجم).

زادة) بسيارته ونقله إلى الشام، ومن الشام غادر إلى أوروبا في نفس الليلة ليكون في مأمن من خطر (السافاك) وعملاء الصهيونية الخطرين. وهذا التحرك يدل علىٰ مدىٰ خوف المستعمرين وأجهزة الشاه من الضربة التي تلقوها، ومدىٰ حشدهم للحد من انتشار أفكار الدكتور شريعتي. ثم قاموا بعد ذلك بإرسال (٦٠) معمم من إيران إلىٰ لبنان، ليتحدثوا على المنابر في جنوب لبنان وشماله وفي مختلف القرىٰ للتبليغ بأن الدكتور شريعتي كان كافراً، وأن الإمام موسىٰ الصدر صلّىٰ عليه ودفنه في الروضة الزينبية، لذا فهو كافر أيضاً، وبثوا التهم ضد الإمام الصدر مما شكل مصدر إزعاج حقيقي له. وانهالت على الإمام موسىٰ الصدر رسائل التهديد من إيران والعراق تؤنبه لتكريمه الدكتور شريعتي وإقامته حفل الأربعين.

أما نحن فإننا نعتقد بأن الدكتور شريعتي قد أوجد حركة، ويعتبر أكبر فخر للجيل الشاب والمؤمن، وكل ما فعله لأجله فهو قليل[١].

* * *

(١) صحيفة كيهان ١٩/٦/١٩٨٠م.

لو كان شريعتي حياً لكان خير ناصر وساعد للإمام(١)

السيد محمود دعائي(٢)

س ـ يرجىٰ التحدث عن دور شريعتي في يقظة الجيل الشاب وتأثير ذلك في انتصار الثورة الإسلامية.

ج ـ في البداية أؤكد أني لست أهلاً للتحدث عن هذا الموضوع، لكني كطالب علم صغير أتحدث عن رأيي ورأي الطلاب الشباب وطلاب العلم من أمثالي حول هذا الموضوع، فإني فخور بأن جزءاً كبيراً من وعيي ـ إن كنت واعياً ـ ومن دوافعي الجهادية اكتسبته من قراءتي لأفكار المرحوم

---

(١) مجلة سروش العدد (١٠٢) ١٥/٦/١٩٨١م.

(٢) أحد أبرز أعضاء مكتب الإمام الخميني في النجف وإيران، رابط الإمام الخميني مع الدوائر الرسمية العراقية، سفير إيران في العراق بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران، نائب سابق في البرلمان، رئيس تحرير صحيفة اطلاعات الرسمية (المترجم).

شريعتي. . . وإنني أتحدث هنا بصفتي أحد المتأثرين بآراء واستنتاجات المرحوم الدكتور في حياتي الإعلامية والثقافية.

عندما كنت ناطقاً باسم (جماعة العلماء المجاهدين) في الخارج، كنت أسعىٰ للإستفادة من الامكانات المتوفرة في الخارج مع المحافظة علىٰ الحيثية والاستقلال المطلوبين. وحينها كان الكثير من الأخوة في جماعة العلماء من الشبان المجاهدين يصرّون علىٰ أن الفرصة سانحة للتحدث إلىٰ الناس في الخارج بما لا يمكن طرحه في الداخل، وعلى ضرورة رفد نشاط الفضائح والعمل السياسي والتنظيمي بدوره من العلوم الإسلامية والأحكام السياسية الإسلامية، وأن تحدد ساعات لمتابعة هذا الأمر.

وكنّا نعاني من الشحّ في هذا المجال، ولم أكن في المستوىٰ الكافي في التحقيق والبحث لأسدَّ الثغرة الموجودة، وأطرح المواضيع المطلوبة، لذا كان لا بد لي من الاقتباس أو مساعدة الأصدقاء لي، إلىٰ أن بدأت برامج حسينية الإرشاد. عندها كان الأخوة الذين أصروا علىٰ تفعيل هذا النشاط، يقومون بتزويدنا دورياً بأعمال الشهيد المطهري ومؤتمرات الشهيد الدكتور شريعتي، ويطلبون منّا نشرها.

وأنقل هنا تعليقاً لأقرب الناس إلىٰ الإمام الخميني وهي

زوجته، حيث قالت جملة لطيفة خلال مقارنتها لمؤلفات المرحوم المطهري والمرحوم شريعتي فقالت: الأول يكتب بعمق أكبر، والثاني يكتب بشكل أكثر جذابية.

والجذابية التي تحدثت عنها هذه الأم المثالية كانت نابعة من ضرورة النقل الحماسي والمؤثر للقضايا خلال جو الاختناق الذي كان موجوداً. في الواقع كان كلا هذين العظيمين من أفضل الأصدقاء والأفراد، ويدرك كل واحد منهما الآخر، ويقدران بعضهما البعض، ويتكاملان، فأحدهما يبذل جهده في التحقيق وأصول المسائل الإسلامية، بينما الآخر كان يشبع حاجات الجيل المتمرد في المجتمع، جيل الشباب المتعلم.

وإذا كنّا حينها كأتباع لسماحة الإمام الخميني نقدم مؤلفات المرحوم المطهري عند الحاجة علىٰ اعتبار أنها نصوص إسلامية سليمة، حيث كان يوصي الإمام بها دون أي تردد ويقبل كل ما كتبه المرحوم المطهري؛ لكننا كنا نعتمد علىٰ مؤلفات المرحوم الدكتور شريعتي في مجال الجوانب الإجتماعية والبحوث الإجتماعية الدينية لأنها كانت من اختصاصه.

والمرحوم الدكتور شريعتي لم يكن يدعي أنه فقيه

إسلامي جامع للشرائط، ولا فيلسوف لا تردّ آراؤه؛ بل كان يعتقد دوماً أنه قد بحث القضايا من منظار تخصصه في علم الاجتماع الديني.

وقد استمر الأمر علىٰ هذه الحال حتى برزت منظمة مجاهدي خلق، وكانت في أيامها الأولىٰ تطرح بشدة الدين والالتزام بالأصول الإسلامية، وقد لاقت إقبالاً لكونها منظمة سياسية إسلامية تعتقد بالتحرك المسلح والمواجهة المباشرة مع النظام الملكي واستطاعت أن تجتذب الدكتور أيضاً وتشكل محطاً لأماله.

فتحدث المرحوم الدكتور عنها في مواضع كثيرة، ودعا لها في مناجاته، لكن أي إنسان يدرك بوضوح أن مقصود الدكتور من ذلك هم الشبان والعناصر الصادقة والمجاهدة التي تواجدت في هذه المنظمة. وأود هنا ذكر بعض ما دونته من ذكريات في هذا المجال.

آنذاك كنت علىٰ علاقة بالمنظمة، وكنت أحسّ أن هذه المنظمة تتعامل مع المرحوم الدكتور بحذر وتقاطعه، ومن ناحية ثانية كنت أتعرض لضغط جماعة العلماء المجاهدين والشبان في الحوزة العلمية بقم للدفاع عن هذا التحول الذي يطرحه المرحوم الدكتور في الفهم الإسلامي، وكانت المنظمة

(خلق) تضغط أيضاً لئلا أذكر إسم المرحوم الدكتور، وكانت تلك مشكلة مبهمة بالنسبة لي لا أعرف لها سبباً!.

إلىٰ أن أعلنت المنظمة عن مواقفها عام ١٩٧٥م عندها أدركت سبب توجسهم من شريعتي ورفضهم له. فرغم احترامهم له في مواقفهم تلك، لكنهم أبرزوا حقدهم الشديد ضده.

خلاصة موقفهم هي أن العلماء والشخصيات الإسلامية لا يمكنها إدراك الواقع الإجتماعي ولمسه، وتسعىٰ بعض تلك الشخصيات لطرح الإسلام بشكل يتطابق مع العصر الجديد وحاجات العصر حتى تتقبله الطبقة الشابة والمثقفة، لكنهم فشلوا في ذلك.

ولأننا كنّا خارج البلاد كنّا نضطر للاتصال بالمنظمات والجماعات الأخرىٰ ومن بينها الماركسيون وفدائيو الشعب. حاولت أن أعطي أحد الأشخاص ـ الذين يقدّرهم الماركسيون في الخارج ويحسبون له الحسابات ولعله أحد الكوادر الرئيسية في اتحادهم الحالي كتب المرحوم الدكتور شريعتي. وبعد مدة جاءني هذا الشخص وهو يغلي من الغضب ويقول: لماذا تقوم شخصياتكم بالتحدث ضد الماركسية في هذه الظروف التي تقتضي الإتحاد ومواجهة النظام البهلوي، وأنت تروّج لمن

يهاجم أسس الماركسية.

فطلبت منه أن يعطيني نموذجاً لذلك. فقال: هذا علي شريعتي إنه يستخدم ذكاءه الخاص وأسلوبه المؤثر لضرب أسس الماركسية، ومواجهة الماركسية حالياً يعود بالنفع على النظام، فلماذا تقومون بذلك؟

فتأثرت حينها وتألمت لأن بعض شخصياتنا العلمائية كانوا يحذروننا من الترويج للدكتور بحجة أن أفكاره قد تكون التقاطية، وقد تؤدي أفكاره إلى استنتاجات ماركسية.

ولديّ ذكرىٰ من الإمام موسى الصدر[1]:

كان يقول بألم عميق: إني أرىٰ ضرورة ترجمة كتب المرحوم شريعتي إلى اللغة العربية، ونصحت بحذف بعض المقاطع التي قد يعتبرها الأخوة من أهل العامة أنها أفكار علوية. فعندما نتحدث عن الدكتور معهم يقولون أنه شيعي متعصب أو رافضي يتعامل بسلبية مع كل مقدساتنا. وأني إذا أردت أن أترجم مؤلفاته وأوزعها أو أذكرها لا بد لي من حذف هذه المقاطع. في حين أني في الداخل أتهم بأني استخف

(١) زعيم ديني وسياسي في لبنان، اختفىٰ خلال زيارة له إلى ليبيا عام ١٩٧٨م (المترجم).

بمقدسات المذهب الجعفري وأنال منها لأني أتحدث عن شريعتي، وأني أروّج لمتسنّن.

تلك كانت ذكريات لطيفة من التعامل المتفاوت والمتضاد مع أسلوب تفكير المرحوم الدكتور وبحوثه بين الآخرين.

هذا التضارب في المواقف تجاهه جعلنا نبحث عن رأي الإمام الخميني لئلا نكون نؤذي الإمام بالترويج للمرحوم الدكتور، وكنّا حينها نرافق الإمام دوماً، فأردنا أن نعرف رأيه.

وكان الإمام الخميني قد اطلع علىٰ جميع كتب الدكتور طبعاً، حيث أنه كان يستغل فراغه خارج البلاد، في تلك العزلة والغربة التي فرضت عليه، ليجعل منها فرصة للمطالعة. فكان يطالع المسائل العلمية المرتبطة بتدريسه، ويقضي باقي وقته في مطالعة الكتب التي تطبع في إيران آنذاك. وقد قرأ معظم كتب الدكتور حينها. لكنه كان يتحاشىٰ إبداء رأيه فيها، وكان محبو الدكتور يتألمون لأن الإمام لا يبدي رأياً واضحاً وصريحاً يؤيد الدكتور، كما كان معارضو الدكتور قلقون وعاتبون لأن الإمام لا يبدي رأياً معارضاً ويخطىء الدكتور.

إني أعتقد أن عدم رفض الإمام وعدم تعامله السلبي مع الدكتور أمر يستحق التأمل وذو أهمية. لكنه دافع عن

الشخصيات التي هاجمها الدكتور في كتبه مثل المرحوم المجلسي.

وفي أحد الأيام كنا في خدمة الإمام الخميني فقال لنا: لقد بعثوا أحداً من طهران ليلتقيني ويتحدث ضد مطهري وشريعتي، إني أعرف الشيخ المطهري، وأعرف كيف يفكر. جاءوا بكتابه (مسألة الحجاب)ووضعوه على الطاولة، وقالوا: إن كتابه هذا جعل جنوب طهران أيضاً يتخلّىٰ عن الحجاب. في حين أنني قرأت هذا الكتاب، وليس هو من أبعد جنوب طهران عن الحجاب، بل إنه قرّب الكثيرين من الحجاب.

كما أتوا بكتاب (معرفة الإسلام) لشريعتي، وقالوا: إنه ضد المقدسات الإسلامية. ولم أرغب بالرد عليهم حينها، لكني قلت لهم: إنه كتاب ضخم، فأين توجد القضايا التي تدّعون. وعندما أبرزوها لي، وجدت أنها ليست كما يدّعون، نعم لعله استعمل أسلوباً خاصاً لا أوافق عليه، لكنه ليس كما يدّعون من أنه مخالف لدرجة لزوم إتخاذ المواقف ضده.

إنّ الجرأة التي دفعت ذوي الإمام الخميني إلىٰ تأييد المرحوم شريعتي وحبهم له هي دليل علىٰ مالاحظوه من تعامل الإمام مع مؤلفات الدكتور. فخلال المقابلات التي أجريناها مع أبناء الإمام الخميني وزوجته أبدوا محبتهم

الشديدة للمرحوم الدكتور شريعتي.

إحدىٰ بنات الإمام الخميني التي تحمل فكراً إسلامياً عميقاً جعلها توفق لخدمات ثقافية واجتماعية جليلة في مدينة قم قد تحدثت عن المرحوم الدكتور في إحدىٰ مقابلاتها بشكل لائق جداً. وهذا يدل علىٰ جو الحرية الحاكم في بيت الإمام الخميني، والديمقراطية الخاصة المتوفرة فيه، بحيث يسمح لكل فرد أن يفكر كما يشاء حتى لو كان تفكيره مخالفاً للآخرين، لكننا لمعرفتنا بذوي الإمام الخميني وتعلقهم بالإمام وإيمانهم به، فإننا نعلم أنهم لا يمكن أن يدعموا أحداً ويمتدحوه إذا كان الإمام يرفضه.

س ـ ما هو دور شريعتي في تلاحم العلماء والجامعيين؟

ج ـ أشير هنا إلىٰ فترة تاريخية وهي كيف برز المرحوم شريعتي. فكلنا نعلم أن المرحوم شريعتي عُرِفَ بداية بين زملائه ومعارفه، ولم يشتهر في المجتمع كله. وكان أول من فهمه واستقطبه وعرّف به هو المرحوم الشهيد المطهري. فمن الواضح أن المرحوم المطهري هو الذي دعا الدكتور شريعتي إلىٰ حسينية الإرشاد ووضع له برنامج، فهناك رسائل موجودة بينهما لدىٰ السيد هادي خسروشاهي، وقد نشرت رسالة موجزة في صحيفة (إطلاعات) يبدو فيها كيف أن حسينية

الإرشاد كانت مؤسسة إرشادية قبل أن يؤدي المرحوم الدكتور دوره في تنوير الجامعيين وطلاب العلوم الدينية، حيث كانت الشخصيات العلمائية البارزة تلقي المحاضرات فيها، واكتشفوا الدكتور شريعتي واستقطبوه بينهم، ومن خلال هذه الحركة برزت مسألة تلاحم العلماء والجامعيين وتعاون المحقق المعمم والمحقق غير المعمم. وإني علىٰ اطمئنان بأن تلك الحركة كانت بداية مثمرة جداً لولا تدخل العناصر المعادية للعلماء، بداية لتعاون العلماء مع غير العلماء ودعوة غير المعمم للعمل من خلال محفل أسسه العلماء. ويمكن القول أن المرحوم المطهري هو مؤسس حسينية الإرشاد، وهو أول من أتىٰ بالدكتور شريعتي إلى حسينية الإرشاد. لكن بعض الأيادي سعت للسيطرة على الحسينية وإبعاد المرحوم المطهري عنها، وخلق جو يصعب معه البقاء فيها، وأرادوا أن يطرحوا المرحوم شريعتي فيها كرمز للعلم والفكر الإسلامي المعاصر، وأن يحاصروا المرحوم المطهري ويقاطعوه، فأوجدوا في الحسينية ظروفاً لا يمكن أن يقبل لها المرحوم المطهري.

ففي الرسائل المتبقية من المرحومين المطهري وشريعتي نجد أنهما يتحدثان بصراحة عن تلك العناصر، وعلىٰ رأسهم (ميناچي) فيذكرانه بحرقة وألم، وهو الشخص المتعدد الوجوه، الغامض الذي لعب دوراً عجيباً ومؤثراً في إبعاد

الدكتور عن العلماء، وتحريك المواجهة بين العلماء والدكتور.

س ـ يبدو أنّ هناك وثائق عن هذا الشخص كانت في السفارة؟

ج ـ نعم كانت هناك وثائق عنه، فهو كان عضواً في هيئة أمناء دار التبليغ[١] وكان يدعو الصحفيين الأجانب إلى بيت شريعتمداري خلال الثورة، وكان علىٰ علاقة مع معظم أعضاء حزب نهضة الحرية، وكان يطلع علىٰ مواقف الإمام الخميني في باريس وينقلها إلىٰ بيت شريعتمداري لاتخاذ مواقف مشابهة لها. كان متعدد الوجوه، والساعي لابعاد المرحوم شريعتي عن المرحوم المطهري.

بعيداً عن هكذا عوامل وتدخل فإن ما طرحه المرحوم الدكتور من فهم جديد لقضايا الإسلام الاجتماعية والتاريخية كان مقبولاً جداً في محيط العلماء الشبان، ووافقت عليه شخصيات علمائية بارزة كثيرة رغم المشاكل التي كانت آنذاك، ورغم المواجهات التي كانت أجهزة أمن الشاه تعمل علىٰ إيجادها، ورغم ذلك كله كان هناك امتداح صريح متعدد

(١) دار التبليغ كان مركزاً لإدارة الحوزة العلمية للأجانب ولنشر الكتب والمجلات، وقد تولىٰ الإشراف عليها السيد شريعتمداري بدعم من نظام الشاه (المترجم).

للمرحوم الدكتور، ومن بين ذلك ما قاله الشيخ المشكيني[١].

فآية الله المشكيني قام في إحدىٰ الليالي بزيارة حسينية الإرشاد شخصياً، واستمع إلىٰ محاضرة المرحوم الدكتور، وعندما عاد من تلك المحاضرة قال: لقد ذهبت إلىٰ هناك واستفدت، هناك كثيراً من الأمور التي لا نستطيع طرحها، لكنه يطرحها[٢].

وهذا يدل علىٰ الإنصاف والتعامل بصدق ومحبة. لكن هناك مسألة وهي أن هذا التأييد لا يعني أن علينا أن نأخذ بكل ما قاله الدكتور وطرحه في مؤتمراته ومحاضراته وكتبه. وهو بنفسه قال عدة مرات لا ينبغي أن تعتبروا ما أقوله هو نظريات فقهية إسلامية مائة بالمائة، بل إني أطرح استنتاجاتي وفهمي، وقد أكون مخطئاً. وكان يتمنىٰ أن يقوم أصحاب الرأي بنقد أفكاره وتصحيح كتبه، وهذا ما أوصىٰ به الكثيرين، ومنهم: محمد رضا حكيمي وبعض أصحاب الرأي.

سألت السيد الحكيمي مرة هل صحيح أن المرحوم

---

(١) آية الله الشيخ علي المشكيني، إمام جمعة قم ورئيس مجلس الخبراء لاختيار قائد الجمهورية الاسلامية، ويعدّ من الأساتذة المبرّزين في حوزة قم، ويعتبر صاحب مدرسة في علم الأخلاق.

(٢) يقصد شريعتي.

الدكتور أوصاك؟ فقال: نعم لقد أوصىٰ الجميع بنقد مؤلفاته، وحذف كل ما لا يتطابق مع الموازين الإسلامية وإصلاحه، وكان ينوي أن يفعل ذلك بنفسه، وأن يعيد النظر في كل ما كتب، لكن الأجل لم يمهله.

س ـ يذكر الدكتور شريعتي في أحد مؤلفاته أنه يفتخر بأنه مقلد للخميني وأنه لا يمكن أن يتخذ مرجعاً غيره. حسب معرفتك به ما هو إحساس الدكتور شريعتي تجاه الإمام الخميني؟

ج ـ من الواضح أن الدكتور شريعتي كان من عشاق الإمام الخميني والمخلصين له، ومعارضي الدكتور كانوا نفس معارضي الإمام الخميني. ولا أعني بذلك من يختلف مع الدكتور أكاديمياً، بل أولئك الذين أثاروا البلوىٰ والمشاكل، وكانوا يستعملون نفس الأسلوب ضد الدكتور وضد الإمام. يمكننا القول أن الدكتور كان مع الإمام في المعاناة من أعدائه، وكان لهما أعداء مشتركون، ولهما أصدقاء مشتركون أيضاً، وهناك يمكن تصور العلاقة بين الدكتور والإمام لو أتيح لها أن تقوم.

وبصرف النظر عن تصريحات الدكتور في المناسبات المختلفة ومنها ما ذكرته بقوله إني افتخر بأنني مقلد للخميني،

فإن ذلك كان عندما بلغه أن أحد المعممين قال في منبره: يكفي شريعتي انحرافاً أنه مقلد للخميني. عندها قال شريعتي إني أفتخر بأنني مقلد للخميني. أي أنه يقول أن هذا الإتهام هو أكبر مشجع ودعاية ومبعث فخر لي.

وعندما توجه الدكتور إلى الخارج، وعمل من خلال الإتحاد الإسلامي كان يحاول أن يقيم علاقة مباشرة مع الإمام الخميني، وبعث له الرسائل، وقام أحد الأفراد بنقل رسالة من الدكتور في أوروبا إلى الإمام في النجف، لكن جواب الرسالة وصل بعد استشهاد الدكتور. وكان الدكتور في رسالته تلك يحاول أن ينظم خطه الفكري والإعلامي المستقبلي كجندي في جبهة الإمام الخميني حسب تعبيره الدقيق في رسالته.

❊ ❊ ❊

ملامح الدكتور شريعتي

الأستاذ فخر الدين الحجازي[١]

في اللحظة الأولىٰ وقع نظري علىٰ حذائه البسيط، وارتفع نظري متأملاً إياه عالياً حتى بلغ وجهه، فوجدت علىٰ وجهه لون سنابل قمح (مزينان)[٢] الباسقة تحت لهيب شمس الصحراء، عيناه نصف مفتوحتان، وتحكيان عن أسرار كثيرة، كنجوم سماء قرية (كهك) التي تطوي طريق (مكة) وتغسل وجهها في (زمزم)، جبهته كانت طويلة جداً حتى أنها امتدت إلى مؤخرة رأسه! وتحتها دماغ كبير، دماغ انتجته الأفكار، ويدير عجلة حركة الأمة.

هذا اللقاء كان في تموز عام ١٩٥٢م في مقر حزب

---

(١) نائب طهران في مجلس الشورىٰ الإسلامي، خطيب مفوّه، استاذ جامعة، صديق الدكتور شريعتي. (المترجم).

(٢) مسقط رأس الدكتور الشهيد (المترجم)

الشعب الإيراني بمشهد، فالتقت نفسي بروحه العظيمة، واستمر الإتحاد حتى يوم استشهاده.

كنت حينها أقطن في (سبزوار) وكانت الحركة الوطنية في أوجها، وكنت أطبع صحيفة (تجلي الحقيقة) في مطبعة صغيرة بسبزوار بألف مشكلة تواجهني، ولأني لم أكن قد بلغت السن القانوني، لذلك حصلت علىٰ الامتياز باسم والدي، وكنت أدعم الحركة الوطنية، حتى حلَّ يوم ١٩/ آب، فصادروا حياتي وراحتي، ففررت إلىٰ الصحاري ليلاً، وسرت علىٰ أقدامي عدة أيام حتى وصلت مدينة (مشهد)[١] وبقيت فيها متخفياً لمدة، وكانت مصيبتي تلك سبباً في سعادتي بالقرب من الدكتور، حيث قضينا أكثر الأيام والليالي سوياً، فلم يتركني، واتفقنا أن ننظم حوارنا بشعر ارتجالي.

لقد كان معلماً عادياً في مدرسة (أحمد آباد) إحدىٰ ضواحي مدينة (مشهد) وكنت قد بدأت بدوري في التعليم، إلى أن افتتحت كلية الآداب، فانتسبنا إليها سوياً، ولأني كنت أعزباً وقد استأجرت بيتاً، كان بيتي مكان أمن وهدوء لمطالعته، كان يأتي ويتناول البطاطا التي أعدّها في البيت

(١) في خراسان وسميت مشهد لوجود مشهد الإمام الرضا علي بن موسىٰ عليه السلام فيها. (المترجم).

وينشغل بالمطالعة، فينتصف الليل وهو يقظ ولا يدعني أنام، وعندما استيقظ صباحاً للصلاة أجده ما زال مستيقظاً منكباً علىٰ مطالعة الكتب، عندها أحسست أننا وإن كنّا سوياً، لكنه آخذ بالإبتعاد عنّي والتألّق.

في تلك الأيام كان يجري نقاشاً وبحوثاً علمية وفلسفية مع الأصدقاء، ويُدرّس رفاقه في السياسة درس العقيدة، ويتحدث عن المادة والتضاد والفيزياء والميتافيزيقيا، ويصل لقاءات الليل بالصباح.

حرّر حينها كراس (الرسالة الوسط) وترجم (رسالة الشيخ كاشف الغطاء إلى الإتحاد الأمريكي للشرق الأوسط) ثم ترجم أخيراً كتاب (أبو ذر) القيّم لجودت السحار من اللغة العربية إلى الفارسية، وكنت أرافقه بعض الأحيان لتعلم اللغة العربية والقرآن من استاذه ووالده.

كان الدكتور في الجامعة معرضاً لحسد وحنق الأساتذة، لأنه كان يفهم أكثر منهم رغم أنهم كانوا حائزين علىٰ الدكتوراه، وكان يتغلب عليهم أحياناً.

كنّا حينها نكتب سوياً المقالات، وتطبع في صحف (محافظة خراسان) لكن كتاباته كانت ناضجة أكثر وأجمل.

نشط في حركة المقاومة الوطنية، وفي الذكرىٰ السنوية

للحادي والعشرين من تموز تحوّل بيتي إلى غرفة عمليات لأنه كان نائياً وغير معروف. قام الشباب بإحراقِ بوابة السفارة البريطانية، وجرت تظاهرات في السوق، وقامت الشرطة بقمع التظاهرات وسحقها دون رحمة.

وكان الدكتور يحب البطيخ الأحمر وسجائر (هما)[١] وفي يوم زواجي سمعت أصواتاً مرتفعة تصدر من الأزقة المعرجة قربنا، وقد تصاعدت أصوات الشباب وضحكاتهم، وإذا بي أرىٰ الدكتور يدفع عربة يدوية قد ملأها بالبطيخ وعدة علب سجائر (هما) قد أتاني بها كهدية زواج.

أطروحته في الكلية حسب وصية المرحوم (فياض) كانت ترجمة كتاب نقد عربي، نال عليها المرتبة الأولىٰ في الكلية، وبين تجاذب شديد بن المسؤولين استطاع أن يحصل على منحة من الحكومة للذهاب إلىٰ (باريس)، وقبل أن يغادر إلىٰ (باريس) اقتادوه مع والده وبعض أصدقائه إلىٰ سجن (قزل قلعه) في طهران.

رزق بأطفال، وكان يحب (إحسان) كثيراً، ويمسكه بشفتيه ويقبله ويقول: أنت روحي يا معجزة مزينان.

---

(١) سجائر وطنية إيرانية، و(هُما) هو اسم طائر اسطوري (المترجم).

أخيراً ذهب إلىٰ باريس واصطحبهم معه، وبدأ هناك حياة التحقيق والبحث في غرفة ضيقة ومظلمة، ودرس علم الاجتماع الديني وتحليل التاريخ في جامعة (السوربون) وكان يمارس نشاطات سياسية وعلمية أخرىٰ إلى جانب دراسته، ولم تمض عليه مدة حتىٰ اتقن اللغة الفرنسية إلىٰ درجة مكّنته من ترجمة كتاب (الدعاء لأكسيس كارل) إلى الفارسية، وطبع في إيران.

وانقطع عن (الجبهة الوطنية) وكان يقول: إن الدكتور مصدق قد أفرغ آخر رصاصات الرحمة في رؤوس أعوانه اللاأوفياء.

وعندما توفيت والدته في (مشهد) كلفني بإلقاء كلمة في مجلس الفاتحة، حيث حضر المجلس محافظ خراسان، وقد أغاظه كلامي الحاد، وكان يحمل أحقاداً عليَّ من قبل، فنفاني إلى محافظة (غيلان)[١] وجاء الدكتور إلىٰ إيران لحضور مراسم عزاء والدته، لكنه لم يكن (علي) السابق، بل كان متوهجاً قد بلغ الأوج، ولم نعد نجرأ على ممازحته. ثم عاد إلىٰ باريس، ونشط في التحقيق حتى لفت انتباه أساتذته، فساهم مع (البروفسور ماسينيون) في تأليف كتاب (فاطمة)

---

(١) محافظة شمالية تقع إلى جانب محافظة مازندران (المترجم).

و(المنصور الحلاج) وأثّر في روحية الأستاذ (غرويتش) اليهودي إلىٰ درجة دفعته أن يصدر بياناً يؤيد فيه (الفلسطينيين) ويهاجم فيه (إسرائيل) وكانت له مراسلات علمية وعلاقات صداقة مع (فرانتس فانون) وقدم خدمات جليلة لثورتي فلسطين والجزائر، وكان صديقاً مقرباً لوزير خارجية الجزائر[١].

والده كان يترقب عودة (علي) وكان (علي) يقول سآتي ولم يأتِ، حتىٰ جاء مع أسرته إلىٰ (إيران) براً، فاعتقلوه عند الحدود، وجاءوا به إلىٰ (طهران) وأودعوه السجن، فتأثر والده لذلك، وكان والدي صديق لعلي ووالده، فأخذته إلى الأستاذ ليسكّن اضطرابه النفسي. وكان أهالي (سبزوار) يتحدثون عن كرامات لوالدي ويقولون أن تفأله واستخارته بالقرآن صائبة دوماً. ففتح والدي القرآن متفألاً وقال: سيطلق سراح (علي) بعد إحدىٰ عشر يوماً. لكن اليوم الحادي عشر أتىٰ ولم يأتِ (علي) فقال والدي: إنه أمر غير ممكن. وفي اليوم التالي أتصل بي الأستاذ وقال لي: قل لوالدك أن علي قد أطلق سراحه بالأمس.

قمنا بترتيب استقبال لائق به عند محطة القطار، لكنه جاء مرتدياً قميصاً وبنطالاً عاديين، ويتحدث بلهجة أهل (سبزوار)

---

(١) الرئيس الحالي للجزائر ، عبد العزيز بوتفليقة.

وبلحن أهل (مشهد) فلم يصدّق أحد أنه أصبح دكتوراً محققاً. فعينوه مدرساً في ثانوية (ملكي) وكنت بدوري مديراً للمدرسة وأرادوا تحطيم شخصيته فنقلوه إلىٰ مدرسة (طرقبة)[١] في ضواحي مشهد، واضطر للذهاب إلىٰ (طهران) وخرج منها منتصراً من الامتحان الصعب الذي نصبوه له ليصبح استاذاً مساعداً في الجامعة.

وعاد إلىٰ مشهد ليدرّس في كلية الآداب، وكان يتبع أسلوب الصداقة مع الطلاب، ويجلس معهم في مقهىٰ الكلية ليحتسوا الشاي. وكان درسه مفيداً جداً إلىٰ حد أن طلابه كانوا يتابعون الدرس معه حتى الغروب، ثم كانوا يتسلقون أسوار الكلية عند الخروج لأن أبوابها مغلقة. شيئاً فشيئاً تحرك الحسد والضغينة في قلوب الأساتذة، وكان رئيس كلية الأداب معيناً من قبل (السافاك)[٢] فقدم تقريراً ضده، مما اضطر الدكتور إلىٰ الهجرة إلى (طهران) والبدء بتأسيس حسينية الإرشاد.

أكثر من ألف طالب كانوا يشاركون في درسه، ويأتي بعضهم من باقي المدن، فيتحدث عن الحقائق دون مداراة،

---

(١) مدينة سياحية ومصيف تبعد عن مدينة مشهد (٨٠) كيلومتر تقريباً (المترجم).

(٢) السافاك جهاز أمن الشاه، وكان من أسوأ أجهزة الأمن في العالم، حتى أصدرت منظمة العفو مذكرة شديدة ونشرت جزءاً من جرائمه، وكان العضد القوي لأمريكا واسرائيل في إيران والمنطقة (المترجم).

ويواجه آلهة المال والسلطة والتزوير، حتى انتفض عليه بعض المعممين القشريين ينهشون لحمه، ويكيلون له الشتائم من منابرهم، يتهمونه بالسيّىء والوهابي، وأنه يقنع الشبان بالصلاة مكتفين. فيما يقول بعضهم أنه يطرح الشيوعية بإطار إسلامي، وليس من المصلين الصائمين. فكان يحارب علىٰ عدة جبهات دون أن يتعب.

لم يكن في شهر رمضان يلبي دعوات الإفطار، بل أعدّ لنفسه غرفة صغيرة غير معروفة لينظّم فيها دروسه حتى الصباح، وكان أحياناً ينسىٰ تناول طعام الإفطار أو السحور، فيخبو لونه من شدة الجوع، فيدرك الناس أنه لم يتناول طعاماً خلال (٢٤) ساعة مضت، كان سريعاً يقول؛ يجب أن نقول ما يجب قوله فليست لدينا الفرص الكافية وسيمنعون ذلك قريباً.

أُقيم إفطار في بيت أحد الشهداء، فقام جمع من الخطباء والكتّاب الحاضرين بانتقاده فقالوا: كيف تكون عالم اجتماع وأنت لا تعرف المجتمع؟

فيردّ عليهم بهدوء ويقول: إن لم نتمكن من تعريف الجيل الشاب علىٰ حقائق الإسلام بصراحة، فلن تكون هناك فرصة أخرىٰ، وسيكون شبابنا غرباء عن الإسلام مع وجود كل تلك العقائد الغريبة. يقول ذلك وقطرات الدمع تنسدل علىٰ خديه.

كان يتكلم دون مواربة، ولا يخاف الإتهامات والشتائم، ويشير باصبعه إلىٰ نقاط ضعف المسلمين حيث أصبح الإسلام كالفرو المقلوب لديهم، ويطرح الإسلام الثوري والتشيّع العلوي الأحمر.

قضىٰ شهر رمضان في غرفة مجهولة، وحيداً، يعمل دوماً، كان يُبيّن في خطاباته أحدث حقائق الإسلام والأكثر أصالة، دون مبالغة كان الأكثر مطالعة وأكثر المفكرين في الشرق وعياً، وجاءت كتبه مليئة بالبركة وافرة المضمون يندر أن نجد لها نظيراً في القرون المعاصرة، حيث درس جميع المذاهب الفكرية والدينية والرسالات من زاوية وعمق خاص، وأثبت أفضلية الإسلام عليها بالإستدلال والتحقيق.

بقي في (أوروبا) لعدة سنوات، لكنه طوال تلك المدة لم يتلوث بغبار الغرب، بل تعرَّف جيداً علىٰ نقاط الضعف الكثيرة للمدنية الغربية، وهاجم ذلك البناء الخادع السحري وحطمه.

خدمته الكبرىٰ للإسلام أنه دوَّن العلوم الإجتماعية الجديدة والتحليل التاريخي في قالب الثقافة الإسلامية، وجعلها أكثر سعة وعمقاً، ولم يكن قد سبقه إلى ذلك أحد. وعرض الإسلام الحديث والثوري علىٰ الجيل الشاب والمتعلم بحيث انطلق نحوه كل عطاشىٰ الحقيقة، وتقبّلوه. يمكننا القول أنه لو لا

نتاج شريعتي لمال شبابنا الثوريون إلى المذاهب الفكرية المادية والمنحرفة، ولوقع أبناؤنا اليوم فريسة الأفكار الغريبة، وقد لمست هذه الحقيقة ببداهة ووضوح داخل إيران وخارجها.

خلال مقابلة صحافية لي مع جمع من الصحافيين الإسكندنافيين سألني صحافي لجوج عن دور الدكتور شريعتي في الثورة الإسلامية، وكنت كلما أجبته عاد ليسأل واستمر ذلك البحث في (كوبنهاغن) لمدة، وعندما سألته عن سبب تلك اللجاجة عنده، قال لي: إن مدير تحرير صحيفتنا يهودي، ويسعىٰ إلى تهميش دور الدكتور، لذلك أكثر عليك الأسئلة عنه لأحاول بذلك إقناعه!

إن شخصيته الفكرية الكبرىٰ كانت واسعة لدرجة جعلته يتعرض للهجمات من الإتجاهين، كما تعرض من قبل مراده وإمامه (علي). ففي إيران كان بعض وعاظ السوء يعتبرونه وهابياً وسنياً، وعندما تشرف بالحج وكنت برفقته اعتبره الوهابيون في رابطة العالم الإسلامي أنه من الشيعة المغالين والمتعصبين، ولم يسمحوا له بإلقاء كلمة في الرابطة. لقد كان مسلماً شيعياً بحق، شيعياً خالصاً ومخلصاً، وكتاباته وخطبه حول علي وفاطمة والحسين عليهم السلام والأئمة إلى صاحب الزمان، بل وجميع أعماله الصغيرة كانت تنطق بتشيعه صراحة، وكانت عقيدته الشيعية بارزة كالشمس.

كتاباته الثرة أغنت الإسلام بنفحات جديدة، كان يحب القرآن كثيراً، كان من أهل الصلاة والدعاء، كان يقضي الأيام والليالي في مكة والمدينة في الجبال والصحاري وحيداً، محاولاً تصفح تاريخ الإسلام بين ثنايا تلك الأرض. . . في ساحة أُحد ومعبر الجبل، في ساحة بدر، وفي مكان حفر الخندق، وفي بيت خديجة، في محلة بني هاشم، ومكان قبيلة بني النجار، وبيت أبو أيوب، عند أول مسجد بناه علي في المدينة، وفي الآبار التي أوجدها علي قرب المدينة. يتلمس ذلك كله بحسّه التاريخي ونظرته الثاقبة، وكان يبحث عن تلك الأماكن التاريخية سيراً على أقدامه في الصحاري وتحت لهيب الشمس الحارقة، وأحياناً يستعين بجمل ليبحث بين القبائل، ثم يدوّن كل ذلك، لا أدري أين هي تلك الكتابات التي تحيي تاريخ الإسلام، حيث كنت أُذكره بها دوماً فيقول: إني أعدّها. أرجو أن لا تكون قد ضاعت.

ينتنقل بين أفناء مسجد النبي، فيجد عند أعمدته التاريخ كله، ويحسب الفواصل بينها بالشبر والقدم، فيجد بيت النبي وفاطمة، ويحسب المسافة بينهما وبين موقع أصحاب الصفة، فيبين بذلك الحدود الأصلية لمسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

أشار في أحد الأيام إلى أخشاب هناك كالمنجنيق مرتبة،

وقال لي: ماذا تظن هذه؟ قلت: لا أدري. فتقدم نحوها بوجل وترقُب، ودفعها إلىٰ الخلف، فوجد أثار شجرة ما زالت طوال التاريخ تينع فيقطعونها، فقال: أتصور أنه مكان الشجرة التي كانت سكينة بنت الحسينعليه السلام تجلس تحتها بعد واقعة عاشوراء وتبكي لتعلن بذلك عن مظلومية والدها.

لقد دوّن تاريخ الأعوام العشرة الأخيرة من حياة النبيصلى الله عليه وآله وسلم يوماً بيوم، وهو عمل لم يقم به أحد. تصوروا شاباً قضىٰ عمره لا ينام الليل، ويعمل حتى الصباح، وينام ساعة قبل الظهر، كان يمتلك مقاومة عجيبة، ويقف بوجه كل تلك العداوات دون أن يصيبه فتور.

يفكر جيداً ويكتب جيداً ويتحدث جيداً، فكتاباته رغم مضمونها الثرّ فهي من أعذب وأجمل كتب الأدب الفارسي.

بعض خطبه كانت علمية، وبعضها فلسفية، وغيرها اجتماعية وسياسية وثقافية؛ لكن كتاباته تبلغ القمة عندما يصبغها بلون العرفان. فكتابه (الإمام السجّاد أجمل روح عابدة) نادر لا نظير له، وكتابه (الحج) إعجازي، وكتابه (الصحراء) وأدعيته البديهية كلها تُنبي عن عرفان أصيل.

كان يرسل لإبنه في (أمريكا) كتباً عرفانية حتى لا يتأثر بميكانيكية الغرب، وكان متواضعاً إلىٰ أبعد الحدود، جاء يوماً

إلى مكتبة البعثة، فالتف الأخوة من حوله ينظرون بحيرة إلى تلك الأعجوبة، ينتظرون منه نفض سيجارته وقال: لقد أصبحنا قدامىٰ، فالإسلام بحاجة لكتابات وكلام أحدث.

أخيراً أطفأوا صوته السليط، قيدوه بالسلاسل، ورموه مدة ستماية يوم في زنزانة إنفرادية مظلمة، لكنه قاوم كالحديد ولم يستسلم، لقد كان داخل الزنزانة مع نفسه ومع الله، يكرر سلام الصلاة ليؤكد حضوره لدىٰ الله والنبي وعباد الله الصالحين ويناجيهم، حتى أضحىٰ السجن عنده جنة.

قضيت مدة في نفس السجن، فوجدت السجن متأثراً به، يقول الحراس أنه مقيد بالسماء، فكلما زاره مسؤول واجهه بعنفوان، وعاد ذاك خاسئاً دون أن ينال من عزيمته.

حتى توسط رئيس الجزائر (بومدين) فأطلق سراحه، لكنه بقي سجين بيته، يعقد أحياناً بعض الإجتماعات الخاصة. في أحد الأيام كان في بيتي فتحدث من الساعة الواحدة بعد الظهر حتى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، فأقام ليلتها مؤتمراً لمفردات القرآن في لقاء سري مع الجامعيين. ومرت مدة لم أره خلالها، حتى انتفض الطير عن الشجرة، وفرّ إلىٰ أوروبا متنصلاً، في أوروبا بدأ أعماله العلمية وتنظيم الجامعيين، لكن القدر غافله.

في أحد الأيام كنت في شارع قريب من بيتي أحمل طفلاً، فجاءني ابن الشهيد الدكتور مفتح[1] ليخبرني باستشهاد الدكتور شريعتي. فسقط الطفل عن يدي، وأصبت بصدمة دماغية ما زلت في دوار منها. وما زالت الجامعة في مدينة (ساسمتون) جنوب بريطانيا ساكتة مبهوتة حيث كانت مكان سقوطه، وعندما حاضرت في قاعة تلك الجامعة أحسست بوجوده معنا.

كان قد قال لابن عمه ما أسوأ أن يموت الإنسان في بيته بسبب الإسهال مثلاً إني أتمنىٰ أن استشهد وأن أدفن إلى جوار قبر تلك السيدة البطلة.

وها هو مرقده الآن إلى جانب مرقد السيدة زينب عليها السلام وجسده إلى جوار ابنة أمير المؤمنين، وروحه تلاقي أرواح شهداء كربلاء، وقد أضحىٰ اليوم أكثر حياة ووجوداً بالثورة الإسلامية، وانتشرت أفكاره وتوجهاته في كل مكان، وأطلق اسمه علىٰ شوارع ومدارس وأزقة ومستشفيات، فصار حاضراً

(١) الدكتور الشيخ محمد مفتح أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة الاسلامية، عميد كلية الإلهيات، وأحد أبرز أساتذة الحوزة العلمية قتلته منظمة الفرقان بتوجيه من وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية في ١٩٧٩/١٢/٨، وأطلق الإمام الخميني على يوم استشهاده، يوم وحدة الحوزة والجامعة تثميناً لجهوده الصادقة في التوحيد بين هذين الكيانين.

في كل مكان، وخاصة في قلوب وعقول الجيل الشاب.

دعوني أقول كلامي الأخير لله وللحقيقة والفضيلة، أقوله لجميع معارضيه ومواليه، ورغم أن إبنه العزيز قضىٰ بعض طفولته في مشهد في كنفي وأحبه كإبني العزيز، وها هو الأن يواجهني وينسق مع أصدقائه التقدميين، ويهاجمونني بين الفينة والأخرىٰ، ورغم أن أخطر أعدائي هم من الأصدقاء المقربين لوالده الأستاذ شريعتي، وعلىٰ فرض أن الدكتور نفسه خرج من قبره، وعاملني بعداء خلافاً لصداقتنا السابقة، حيث كنت لسنوات طوال من أقرب المقربين عنده، وعرفت كل أسراره وسيرته وتحركاته فإني أعلن:

أن الدكتور شريعتي مسلم، متدين، أصيل، ثوري، مؤمن، حكيم، شيعي العقيدة، إثنا عشري المذهب، واعٍ. لا يلتصق به شيء من التبعية والإنحراف، طوال حياتي الخاصة معه وفي المدرسة لم أر منه أي ذنب أو سوء خلق، كان يصلي باخلاص، يقف عند مرقد الإمام الرضا عليه السلام باخلاص وإيمان وخشوع وكأنه يتكلم معه ويتلقىٰ منه الجواب. عباداته خلال رحلة الحج كانت محيّرة، لم يكن ينكر أيّ من الضرورات الدينية، بل إنه كان يقبل حتى بالعادات الدينية العرفية، كان يقرأ معي زيارة عاشوراء، كان خلال شبابه طاهراً وحكيماً،

وإذا كانت هناك بعض الأخطاء في كتاباته، فإنها لا تعد ذنباً، فما أكثر الأخطاء التي ارتكبها أمثال ابن سينا والملا صدرا، لكنه كان منصفاً بحيث عندما ينبّه علىٰ أخطائه يبادر إلىٰ إصلاحها.

كانت حياته بركة للإسلام، وكانت للمسلمين وعياً وثورة، وكان موته فاجعة، وبعد موته صارت شهادته حضوراً مع الأمة، فرحمة الله وسلامه عليه[١].

* * *

(١) صحيفة الجمهورية الإسلامية، ملحق خاص، ١٩/٦/١٩٨٠م.

الإسلام وشريعتي.. الولادة الأخرىٰ

مقابلة مع الدكتورة زهراء رهنورد[١]

س ـ متى تعرفت إلىٰ أفكار الدكتور شريعتي؟

ج ـ حوالي العام ١٩٧١م عندما ذهبت إلىٰ حسينية الإرشاد تعرفت علىٰ أفكار الدكتور شريعتي، ولم يدم الأمر طويلاً حتى نلت فخر التتلمذ علىٰ يديه، وكلما أتأمل وأتساءل كيف كنت آنذاك جامعية ضائعة، ومن الذي هداني لبلوغ ذلك الوادي المقدس، لا يمكنني أن أقول شيئاً سوىٰ أن يد الغيب والرحمة الإلهية هي التي هدتني وقد كنت التائهة المتزلزلة بثقافات الشرق والغرب. وكان الذهاب إلىٰ حسينية الإرشاد قد أثر في مختلف جوانب حياتي وحياة جميع الذين وفقوا لذلك، ومن جملة ذلك التأثير:

(١) فنانة رسامة واستاذة جامعية ومستشارة حالية لرئيس الجمهورية في الشؤون السياسية (المترجم).

١ ـ التعرف على الثقافة الإسلامية الثّرية والجميلة، وقد كنّا قبل ذلك لا نملك إدراكاً صحيحاً عنها، وقد أدركت حينها بوضوح أن الطريق الوحيد لفلاح الإنسان هو الإسلام.

٢ ـ إن الإسلام قد قُدِّم ويُقدَّم حتى الآن بصورة مغلوطة، وهو ما جعل الجيل الشاب يبتعد عنه.

٣ ـ النجاة من الضياع واليأس، وبزوغ الأمل والتوجه الصحيح والهدف، ذلك لأنه يرىٰ نفسه مع آلة الوجود السائرة نحو المصير النهائي، والتي تتبع السنن الثابتة التي تعين بني الإنسان الساعين نحو الحق.

٤ ـ التعرف علىٰ روح تشكل بحراً معلماً ما أن ينذهل الإنسان في النظر إليه، حتى ينجذب إليه ويغرق فيه.

٥ ـ بدء النشاط السياسي والمواجهة مع النظام من خلال أصالة الفكر الإسلامي.

٦ ـ وباختصار الولادة الأخرىٰ.

تلك كانت نبذة من آثار أفكار الدكتور شريعتي وحسينية الإرشاد علىٰ الجيل الشاب خلال عهد الاختناق الأسود[١].

---

(١) تقصد بذلك عهد الظلم الملكي للشاه (المترجم).

س ـ ما هو دور الدكتور شريعتي آنذاك؟

ج ـ كان يوقظ امتزاج روح الصحوة والإيمان والمحبة والعصيان والتمرّد في الوجدان الصامت لقومه، وخاصة عند الجيل الشاب.

إن ثقافة شعبنا وشبابنا خاصة آنذاك كانت على ثلاثة أقسام:

١ ـ شباب يمتلكون ذهنية وشخصية أصيلة، لديهم أحاسيس دينية أو ملتزمون بالإسلام. لكن معظم إسلامهم وراثي وخليط بالعادات والتقاليد التي أضيفت إليه علىٰ مر الزمان. والعجيب أن خلال تلك المرحلة لا تجد تفاوتاً أساسياً بين ذهن ورؤية الجيل الشاب والمثقف مع عامة الناس الملتزمين. حيث كان الوعي الرسالي لدىٰ الطرفين ضعيف.

٢ ـ المتأثرون بالغرب، وينقسمون بدورهم إلى ثلاث أقسام: قسم يجترّون الفكر الماركسي، وقسم خاوين يمتصون بشدة النتاج الثقافي القذر للمجتمع الرأسمالي، وقسم يستهلك نتاج الثقافة والرفاهية الغربية ويمزجونها بالعادات والتقاليد والعقائد الملكية التي تعود إلىٰ ما قبل الإسلام.

العمل الأساس الذي كان يؤديه وجود الدكتور شريعتي يتمثل في أمرين:

١ ـ إعادة الجيل الشاب الخاوي أو الملوّث بالأفكار الغريبة إلى نفسه وهويته الإسلامية.

٢ ـ إعادة بناء الشخصية الإسلامية، ونبذ الأوهام والخرافات والعادات والتقاليد التي شوهت الإسلام ووجهه الناصع بشكل تدريجي طوال أربعة عشر قرناً. وعلينا حالياً أن نكرر هذا الأسلوب ونعتمده، حيث عاد أهلنا إلىٰ هويتهم ببركة الثورة الإسلامية وقيادة الإمام الخميني، هويتهم التي ترعرعت في أحضان الغيب وعاشوراء وعدالة أمير المؤمنين علي وشجاعة السيدة زينب وشهامة الإمام الحسين وعون الملائكة والشهادة والولاية والقيامة. لكن ما تزال هناك أوهام وخرافات وقشرية والتقاطية تشكل الغبار الذي يحجب الوجه النوراني، ولا بدَّ من إزالته من خلال الإستعانة بتوجيهات الإمام الخميني وأساليب الدكتور شريعتي وسائر المفكرين الإسلاميين الأصيلين.

س ـ ما هو موقف الدكتور شريعتي من العلماء؟ حيث يعتقد البعض ويبثون أنه كان معارضاً للعلماء، والعلماء معارضون له. فهل هذا صحيح؟

ج ـ بالمناسبة كنت أنوي الإشارة إلىٰ ذلك، كان شريعتي يكرر هذه الجملة ويقول: «إذا أردت أن تسحق أحد ما فدافع

عنه دفاعاً خاطئاً» فخلال حياته كان البعض يفهمونه خطأً، واليوم هناك من يدافع عنه خطأً. والمرء منهم إما أنه يستعمل ظنّه أو أنه يمارس ذلك عن سوء نية أو ظن سيء. فمن حق جميع محبيه أن يحللوا أفكاره، لكن عليهم أن لا يدافعوا عنه، وليدعوا أفكاره الناصعة تروي عطش المجتمع.

إني من خلال دراستي لكتبه وتعاملي معه يمكنني القول أن شريعتي من النادرين الذين امتلكوا جرأة النقد، ولم يكن يداري أحداً في هذا المجال. لذلك كان يوجّه انتقاداته للعلماء وللمفكرين المتأثرين بالغرب معاً. لكنه في نفس الوقت كان يمتدح نقاط القوة والتألق لدى العلماء والجامعيين. ولقد سعىٰ النظام الملكي أن يجعل منه مفكراً معادياً للعلماء، لكنه رفض أداء ذلك الدور بفطنة، كما سعىٰ النظام الملكي إلى تجنيد علماء البلاط والمفكرين الليبراليين المتأثرين بالغرب لبثّ الفرقة والشقاق بين شريعتي والعلماء. لكن شهيدنا الكبير شريعتي كان يقول: «إن (الخلاف) بيني وبين العلماء هو اختلاف الإبن مع أبيه».

كانت نظرة علماء الدين إلى شريعتي على ثلاثة أنواع:

علماء على غرار قول شريعتي أن خلافه معهم خلاف الانتقاد الأبوي. وعلماء هم رفاق له وشركاء معه في الطريق

والهدف، وعند بروز نقاط تفاوت بينهما كانت تحل من خلال الحوار والنقاش المباشر والحبي. ومعممين عملاء للنظام ووعاظ سلاطين يمارسون دور الطابور الخامس بين مجتمع العلماء، ويعملون لصالح النظام ضد شريعتي وضد العلماء. بشكل عام لم يكن المقصود من طرح هذا الأمر هو الخلاف بين شريعتي والعلماء، بل كان المقصود منه منع انتشار أفكار شريعتي بين الناس.

لكن هنا عليّ أن أشير إلىٰ أمر يرتبط مباشرة بأحداث ذلك العهد وأحداث هذا العهد، وهو أن المفكرين الملتزمين والمسؤولين، والعلماء المجاهدين والملتزمين رغم أن لهما هدفاً مشتركاً هو انتصار الإسلام بشكل كامل، والإستقلال ورفاه الشعب وفلاحه، لكن مصدر ومنشأ أفكارهما وتربيتهما الذهنية والروحية جوّين متفاوتين. أي أن كلاً من الجامعة والحوزة العلمية قد ترعرع في ثقافة خاصة. الجامعة ترعرعت في الثقافة الاستعمارية وأوجدت بنية استعمارية، لكنها ذات تحرك نشط. والحوزة العلمية ترعرعت في ثقافة مستقلة وفي أحضان الفكر الإسلامي. لكنها انتشرت في ثقافة استعمارية واستبداد سياسي حاد. أو من الأفضل القول أن كثيراً من جوانب نمائها قد تقلصت، وحدّ من تحركها. لكن أي فرد ملتزم ومجاهد ومتدين يتخرج من الجامعة لا بد أنه يحمل معه

لطخات من الإسم والأغلال والتربية الثقافية الملوثة. والإنسان الملتزم والمسؤول الذي يتخرج من الحوزات العلمية يحمل معه بعض الكسل والجمود في التحرك الناشىء عن قمع الحوزات العلمية علىٰ يد نظام الشاه. وهناك من الأساس تفاوت في أهداف هذين المنبعين للتغذية الفكرية، والأنظمة المنحطة السابقة وأيادي المتآمرين عليهما والمستعمرين قد تركت أثرها في إيجاد الفرقة والتضاد بينهما. ولطالما لم نقدم طريق حل دقيق ومؤثر وفعال للتقريب بين منبعيّ الوعي والعلم هذين، فستبقىٰ الاختلافات موجودة، مع أننا نسير حالياً نحو حل تلك الإختلافات من خلال جو التفاهم في ظل الثورة الإسلامية والثورة الثقافية.

الدكتور شريعتي كان يقول: «إنَّ أملي كله في طلاب الحوزات العلمية والجامعيين» وليته بقي حياً ليرىٰ أمله ذاك وقد تحقق الآن، أما تعامله مع الحوزات العلمية والعلماء فقد كان علىٰ الشكل التالي:

١ ـ ينتقد.

٢ ـ يقترح الحلول.

٣ ـ يمتدح ويمجّد.

ولو كان ذلك الشهيد حياً الآن لكان ـ حسب ظني ـ من

أقرب أعوان الإمام الخميني، وما أراه في هذا المجال: أن الحوزات العلمية وعلماء الدين والجامعات والمفكرين لطالما لم يوحدوا موقفهم من شريعتي وتكريمه، فإن العدو سيبقىٰ يصطاد من مائهم العكر.

س ـ من خلال قراءتك لكتب شريعتي، وبالنظر إلى معرفته بالعلوم الإنسانية، كيف تجدينه يتعامل مع مسائل (الوحي، العرفان، الغيب) في طرحه للأمور، وهل كان قريباً من تلك العناصر الثلاثة أم بعيداً عنها؟

ج ـ نعم إن المدهش في المعلم الشهيد أنه قد حمل علماً أكاديمياً في مجال العلوم الإنسانية وقد تلقىٰ تلك العلوم من نفس هذه الجامعات في إيران والغرب، لكن فكره كان غضاً طرياً من أمطار خزائن الغيب، وتتضح لنا أهمية هذا الفكر النقي والملكوتي عندما ندرك أن الرؤية الغربية هي رؤية مادية، وتنظر إلى الإنسان نظرة بعيدة عن المعنوية والغيب، لكنه كان في عصره أحد السباقين لإيجاد علوم إنسانية على أساس الإنسان المؤمن بالله وبالغيب، ولحياته هدف ومصير.

س ـ ما هي أهم أعمال الدكتور شريعتي؟ وكيف كانت علاقته بالشهيد مطهري؟

ج ـ كما قلت في أجوبتي السابقة فإن أهم أعماله هي:

١ ـ استخدام التعبير المستقىٰ من ديننا ووطننا وثقافتنا وصياغته بلغة عصرية أو بلسان القوم حسب التعبير القرآني.

٢ ـ إعادة بناء الشخصية الإسلامية ونفض غبار الخرافات والأوهام عن الإسلام.

٣ ـ الحماس والوجد العرفاني والتمرّد علىٰ الظلم والاستبداد بلغة مشتركة عصرية.

٤ ـ إحياء وتعريف وعرض النماذج الصالحة والأسوة بأسلوب عصري ملتزم.

٥ ـ تحويل جميع أبعاد الرسالة والعلوم الاجتماعية والفلسفة والتاريخ والأخلاق وغير ذلك إلىٰ التوحيد أو إلى علوم توحيدية.

٦ ـ إحياء وبثّ روح جديدة في المسائل العقائدية والمصطلحات العقائدية مثل: التشيّع الأحمر، الأمة والإمامة، المرجعية، الشهادة، الشورىٰ، التقليد، التقية، إقامة المآتم، الولاية وغير ذلك، وقد استعملت هذه المصطلحات بعد انتصار الثورة كثيراً.

٧ ـ شرح مصطلحي التشيع الصفوي والتشيع العلوي.

٨ ـ وأهم أعماله اقتراحه حول مصادر الاجتهاد، مثل:

مسألة العلم والزمان في الاجتهاد، وقد أشار إلى هذا الطرح كل من الشهيد السيد محمد باقر الصدر والشهيد الشيخ مرتضى المطهري كل منهما بأسلوبه الخاص فمطهري وطرحه للتفاوت المفهومي للسيرة (انموذج سيرة النبي) وإشارته إلى النماذج التي واجهها النبي وطريقة تعامله معها، فيلتقي مع الدكتور شريعتي في آرائه. وكذلك الشهيد السيد محمد باقر الصدر في كتاب (تحوّل الإجتهاد) حيث طرح مسألة استبعاد الحكام الظالمين لفقهاء الإسلام ودفعهم إلىٰ الإنفراد وطرح المسائل من بُعد فردي، ولزوم تحوّل الاستنباط والاجتهاد إلىٰ البُعد الاجتماعي، وتفعيل الاستنباط. فإن الشهيد الصدر بطرحه هذا يلتقي مع الشهيدين شريعتي ومطهري. طبعاً إنه موضوع تخصصي، وما تحدثت عنه هو استنتاجي من آراء الشهداء الثلاثة في هذا المجال.

علىٰ أي حال بالنسبة لشريعتي ومطهري فإن المسألة الأهم هي أنهما الآن عند ربهما متجاوران ينهلان من رزق الحبيب، وفي عالم الدنيا نجد أن كتاباتهما الأخيرة متقاربة جداً، ذلك لأن هدفهما كان رضا الله وانتصار الإسلام. ومن الطبيعي أن يكون هناك قرب أو بُعد آراء بين المفكرين الإسلاميين لأنهما ينظران إلىٰ الإسلام والقرآن من أبعاد متفاوتة وقد يختلفون في فهم النصوص الدينية والإستنتاج منها، وقد

حفل تاريخ الإسلام بذلك. المهم أن لا ننال من أحدهما في معرض دفاعنا عن الآخر، فذلك خسران كبير لشعبنا ومرض قد دبّت آثاره في عظامنا، ويؤدي إلى إيجاد نقص في معلومات جيلنا الشاب.

إني لم التقي بمطهري مطلقاً، وعندما تتلمذت على شريعتي أقبلت على الإسلام، وعندما قرأت كتاب (الحجاب) لمطهري اخترت الحجاب الإسلامي كأفضل زي للمرأة المسلمة[1].

* * *

(١) صحيفة الجمهورية الإسلامية ١٩/٦/١٩٨٠م.



شريعتي ألطف روح عاشقة

ماذا يقال في شريعتي وعنه وبه وله . . .

أي يراع يخط سطوراً قبل كلامه . .

ومن أي مداد يُغرَفف بعد كلامهم . .

الإمام موسى الصدر . . الشهيد شمران . . السيد دعائي . . شهاده عظيمة من شهداء عظام . .

وآراء علمية من أهل العلم والفضل .

غير أنه جرت العادة أن يقدَّم لكل كتاب ، ولكن مع علي شريعتي المهمّة صعبة ، والجرأة في غير موقعها . لذلك اكتفيت ببضع كلمات عشتها مع علي شريعتي أثناء مراجعتي لبعض كتبه قبل طباعتها معرّبة ومنها هذا الكتاب «الإمام السجَّاد عليه السلام أجمل روح عابدة» .

«مع رسول الله ﷺ قبل غار حراء عاش علي شريعتي وبعد الغار . .

مع نزول الوحي وبداية الدعوة وأذى قريش وبدر وحنين والأحزاب والخندق، وفتح مكّة، كانت روح شريعتي وحتى غدير خم . . حاضرة . . في «محمد خاتم النبيين»[١].

مع علي عليه السلام ابن عم الرسول وأخيه وصهره وخليفته عاش علي شريعتي. وبعد الخلافة، من بدر وحنين والأحزاب والخندق . . من غدير خم والسقيفة ويوم البيعة ليوم الجمل وصفين والنهروان . . من المبيت في فراش الرسول، كانت روح شريعتي وحتى الشهادة في المحراب حاضره في «الإمام علي في محنة الثلاث»[٢].

مع الزهراء عليها السلام أمُّ أبيها وكفؤ بعلها وسرٍّ بنيها، قبل الباب عاش علي شريعتي مع الزهراء وبعد الباب . . . مع الضلع وفدك ويوم الدفن سراً كانت روح شريعتي حاضرة في «فاطمة هي فاطمة»[٣].

مع الحسين عليه السلام ريحانة الرسول ويتيم الشهيدة الزهراء،

(١) من كتب الشهيد شريعتي.
(٢) من كتب الشهيد شريعتي.
(٣) من كتب الشهيد شريعتي.

ابن الشهيد وأخو الشهيد، وصي الحسن المسموم عليه السلام، عاش علي شريعتي وبعد الوصية..

في المدينة وفي رحاب بيت الله في الكعبة وفي الصحارى إلى كربلاء كانت روح شريعتي حاضرة مع «الحسين وارث آدم»[١].

ومع زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام، شاهد كربلاء، عاش علي شريعتي وبعد الشهادة.. مع السبايا من كربلاء إلى الشام إلى كربلاء.. كانت روح شريعتي حاضرة...

مع السجّاد في المحراب.. كانت روحه العاشقة تطوف كفراشة حول سراج النور الإلهي الذي لا يخبو.. نور على نور.. ﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾[٢]... قبسٌ من قبس.. هذه روح علي شريعتي نطوف حولها في هذا الكتاب، في رحاب الإمام السجّاد بين يدي الله عز وجل.

وروح علي شريعتي هنا، هي روحه في «معرفة الإسلام» و«التشيع العلوي والتشيع الصفوي» وفي «العودة إلى الذات» وفي «تاريخ الأديان» و«تاريخ الحضارة».

---

(١) من كتب الشهيد شريعتي.

(٢) سورة النور، الآية: ٣٥.

روحٌ مرهفة، مصقولة، مدركة، عاقلة، واعية، عارفة، عاشقة، سواء تحت حراب السيف أو حراب العلم، بين محراب العباد. أو محراب الشهادة.

وما هذا الكتاب سوى انموذجاً إضافياً وذخراً جديداً وصدقه جارية، وضعها الشهيد علي شريعتي في خدمة رسالته ودينه وأخرته لتظل روحه حيّة مع حياة هذا الدين الحنيف.

فإلى روحه الطاهرة وارواح شهداء الإسلام، سيما شهداء المقاومة الإسلامية في لبنان نهدي ثواب هذا الجهد المتواضع راجين من الله العزيز القبول.

حسين علي شعيب

بيروت ١٤/ ٢/ ٢٠٠٤م

الإمام السجّاد عليه السلام
أجمل روحٍ عابدة

إن موضوع حديثي لهذه الليلة، كما هو واضح من العنوان «**أجمل روحٍ عابدة**» إمامٌ لم يعرف الكِبر أو التجبّر إلى قلبه طريقاً، إنه زين العابدين السجّاد عليه السلام.

إن التأمّل في هذا العنوان، يكشف لنا عن حقيقة هامّة وهي أن تلقينا في الوقت الحاضر للاصطلاحات والكلمات والصفات التي نستخدمها عادة لتبيين مفاهيمنا وعقائدنا الدينية، أو التي تعودنا على أن نصف بها أئمتنا أو قادتنا العظام، يختلف عن تلقي الشيعة الأوائل لها.

وذلك لأننا أحياناً ما نستخدم للتعريف والمدح بأئمتنا صفات أو أسماءَ ونذكر لهم مناقب لم تذكرها كتبنا القديمة المعتبرة وإنما هي نتاجُ ذهنياتنا وأذواقنا التي شكلتها ثقافة

عصرنا، وهذا يبين مدىٰ حجم الاختلاف بين رؤيتنا الحالية ورؤية المسلمين الشيعة الأوائل.

حتى بالنسبة لهذه الشخصية العظيمة أيضاً، والتي تعتبر من القادة البارزين والرسميين في ديننا، فإلىٰ جانب المئات من الصفات التي يمكن لهذا القائد وهذا النموذج العظيم للإنسان المتسامي والإنسان الكامل أن يمتلكها ـ والتي نستطيع أن نصفه باحداها ـ كما أنه من بين الصفات الخاصة به وبآله ـ والتي يمكننا أن نستعمل احداها كاسم أو صفة له ـ.

فإن ذلك الذي نستعمله اليوم كصفةٍ غالبة ومشهورة لهذا القائد، وهي صفة العليل ـ الإمام العليل ـ.

إن الإصرار على استخدام هذه الصفة كصفة دائمة لا تفارق هذا القائد العظيم، ليكشف عن مرضٍ في إيماننا وعقائدنا ونوع فهمنا لهذا الدين ولشخصيات هذا الدين العظيمة، أننا نحن المرضىٰ، وإلا القائد العليل، ما معناه؟!!! وقائدُ من، قائدُ مذهبٍ أُسس تاريخه على الجهاد والصراع الدامي والاعتراض الدائم على السلطة الحاكمة، وتشكّل تاريخُه على أساس الشهادة، والآن نجد أن الصفة البارزة التي يستخدمها أتباع هذا الدين لقائدهم هي العليل، الإمام العليل!!! وبالإضافة إلى هكذا صفات، فإن هناك صفات

وأسماءَ ومصطلحات أصيلة، كانت رائجة في صدر الإسلام ونحن نستخدمها اليوم أيضاً، إلا أن نوع تلقينا واحساسنا بمعانيها يختلف بشكل كامل عمّا كان سابقاً، فعلىٰ سبيل المثال، لقب زين العابدين والذي أَلِفنا استعماله، نستعمله دون أي إحساسٍ بمعناه وبفضله وبالخصائص البارزة التي يشتمل عليها، مع أننا لو جددنا النظر إلىٰ هذه الكلمة وتأملنا فيها جيداً، لوجدنا كم تنطوي على معانٍ دقيقة ولطيفة وعميقة، وكم هي صفة رائعة وجميلة، كما أننا تعودنا على أن نقيس قيم وفضائل وعظمة قادتنا الدينيين بالقيم القومية والدينية والثقافات البشرية الأخرىٰ والأنظمة الطبقية، وظننا أننا بتعظيمنا ووصفنا لأئمتنا بنفس المعايير والقيم والصفات التي نستعملها عادة لتعظيم ووصف زعمائنا وابطالنا القوميين والتاريخيين، إنما وضعناهم مكاناً عليّاً، مع أن المسألة غير ذلك، وذلك لأن نظام القيمة في الإسلام يختلف كلياً عن نظام القيمة القومي أو الوطني أو الثقافي، فمثلاً نحن نظن أننا بوصفنا لنبي الرحمة محمد ﷺ، أنه لا ظل له، إنما نحن قد رفعنا من شأنه وقدره، مع أن قيمة نبي الإسلام ﷺ وعن لسان شخصٍ هو خيرُ من يمكنه أن يتحدث عن رسول الله ﷺ ألا وهو الإمام الصادق عليه السلام هو هذا: ـ «**كان رسول الله يجلس جلوس العبد**

ويأكل أكل العبد ويعلمُ أنه العبد»(١) ـ.

إن هذا لأعظم تجليل لِأَعظم موجودٍ في هذا العالم، لأنه تجليلٌ منطلقٌ من الرؤية ومعايير القيمة الخاصة بالثقافة الإسلامية انظروا مثلاً إلى مقدمة كتاب زاد المعاد، الصفحات الأولى منها، لتروا الطريقة التي راح فيها الكاتب(٢) ـ وهو من

---

(١) بحار الأنوار، ج٦٣، الصفحة ٤١٩، طباعة مؤسسة الوفاء، الطبعة الثانية ١٩٨٣، بيروت، لبنان، نقلاً عن المحاسن، ج٢، ص٤٥٦. مطبعة دار الكتب الاسلامية

(٢) لو كنت اجرؤ، لقرأت عليكم هذه المقدمة هنا وفي هذه الليلة.
الدكتور شريعتي لم يجرؤ يومها على ذكر تلك المقدمة، ولكننا نظراً لاختلاف ظروف الزمان والمكان نذكرها بكل بساطة: (الناشر)

مقدمة كتاب (زاد المعاد)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل العبادة وسيلة لنيل السعادة، في الآخرة والأولى، والصلاة على سيد الورى محمد وعترته أئمة الهدى. أما بعد فإن العبد الخاطىء محمد باقر بن محمد تقي عفى الله عن جرائمهما يدوّن على ألواح الأرواح الصافية للأخوة الإيمانيين والأخلاّء الروحانيين أن جناب الحضرة القدسية للباري تعالى شأنه جعل الصوم والصلاة والدعاء والعبادات أقصر الطرق وأشرفها لنيل السعادات وهداية التائهين في وادي الجهالة والضلالة، وقد وردت أعمال وأدعية جمّة عن رسول الله وأئمة الهدى(صلوات الله عليه وعليهم أجمعين) تزخر بها كتب الأدعية، وأنا الداعي خادم أخبار الأئمة الأطهار عليهم صلوات الملك الغفّار قد جمعت أكثرها في كتاب بحار الأنوار، غير أن أكثر الناس لا يتيسّر لهم الاطلاع على ما في هذا الكتاب (ضخم جداً) والعمل بجميع ما فيه نظراً لانشغالهم بأنواع الهموم الدنيوية، لذا قرّرت تجميع خلاصة منتخبة من أعمال السنة وفضائل الأيام والليالي

الكُتّاب[١] الشيعة المعروفين جداً وبتقييمٍ ورؤيةٍ تشيعية صفوية

الشريفة وأعمالها في هذه الرسالة لكي يتسنى لعموم الناس الاستفادة منها ولعلّهم يذكرون هذا العبد المذنب بدعاء أو استغفار وأسميتها بـ(زاد المعاد) عسى الله أن يهدينا وإياهم إلى سبيل الرشاد، ونظراً لأن إتمام هذه الرسالة وإنجازها على عجالة تمّ في زمان دولة العدالة وأوان سلطنة السعادة صاحب الحضرة العليا سيّد سلاطين الزمان ورئيس خواقين العصر، شيرازة أوراق الملة والدين وصفوة أحفاد سيّد المرسلين، الماء والخضراء للبستان المصطفوي، وعين وسراج البيت المرتضوي، السلطان الذي خدمه كثير جمّ والخاقان الذي الملائكة له حشم، سليل الشجاعة ومن سيفه البتّار نهر جارف لرؤوس الكفار نحو دار البوار، وحسامه الحارق، كالنار يهوي على بيدر المعاندين والمخالفين مصداقاً لقوله تعالى ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾، من ترتفع أيدي الداعين له بمزيد الرفعة في بلاطه العالي البنيان، وتلهج ألسنة أرباب التصوف بزمزمة الدعاء له بخلود دولته، تعينها على ذلك طيور العندليب الشامخة على أغصان سدرة المنتهى، والكل له داعٍ بأن يزلزل الله كل سيف يشهر ضده في يد صاحبه، ويجعل كل راية نفاقٍ مرفوعة بوجهه كفناً لرافعها وحاملها. . . يا من جبين غضبه يفكّ العقد التي لا تحلّ، وراحة يده الكريمة سحاب مطر على مزارع الآيسين، مؤسس قواعد الملّة والدين، مروّج شريعة الآباء الطاهرين، ومَنْ حياض بلاطه تفيض من كثرة تقبيل شفاه سلاطين الزمان وخواقين العصر، ومن صرحه الممرّد مطرّز بنداء (قد مسّنا الضرّ أيها العزيز) أعني السلطان الأعظم والخاقان الأعدل الأكرم، ملجأ الأكاسرة، وملاذ القياصرة محيي مراسم الشريعة الغراء، ومشيّد قواعد الملّة البيضاء، السلطان بن السلطان، والخاقان بن الخاقان، الشاه سلطان حسين الموسوي الحسيني الصفوي بهادر خان، لا زالت رايات دولته مرفوعة، وهامات أعدائه مقموعة. .

ومن هنا فإني أقدّمها هديّة لحضرته الشريفة رجاء أن يتقبلها بباعه الأشرف، وينتفع بها صاحب السمو والجلالة بمحمد وآله الطاهرين، والله الموفق والمعين!

(١) يقصد العلامة المجلسي المتوفى عام١١١١هـ، والمعاصر للدولة الصفوية.

جديدة ـ يمدح العظماء والكُبراء، مع أنكم رأيتم في الإسلام والثقافة الشيعية الأصيلة، كيف تحدث الإمام الصادق عليه السلام عن نبي الإسلام والصفات التي انتقاها لذلك، مع أنه كان قادراً على أن يصف النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويعرّفه باستخدام المئات من صفات التبجيل والتعظيم، ولكن ما هي الصفة التي اختارها لذلك؟ إنها صفة العبودية.

لقد عوّدنا تاريخ البشرية أن تتداعى إلى أذهاننا لدىٰ سماعنا لكلمة قائد أو زعيم، صفاتٌ من مثل جبار، متكبر، مستبد، على حين أننا في هذا النظام وفي هذه الثقافة وهذا الإيمان المعنىٰ الذي يتداعىٰ إلى ذهننا لدى سماعنا لكلمة ـ الإمام ـ ليس الجبار أو المتكبر، وإنما **السجّاد**.

إن هذه الصفة تُعَنْوَن على أنها أعظم وأبرز خاصية من خصائص إمامنا، الصفة **المائزة** له والصفة التي يمتاز بها عن كافة زعماء التاريخ البشري الأخرين، والصفة التي تُظهر فضله وأفضليته على كافة قادة التاريخ الإنساني ـ **أجمل روح عابدة ـ الإمام الغير جبّار، السّجاد.**

إنها معانٍ استخلصتها من صفات وأسماء وألقاب هذا الإمام.

الكسيس كاريل[١] الفيزيولوجي الكبير والحائز على جائزة نوبل والمثال والنموذج للرؤية العلمية ـ العلوم الطبيعية ـ في القرن العشرين، وأحد أعظم الشخصيات الممثلة لاتجاه خاص في العلوم[٢] العصرية، هذا الرجل ومع هذه الرؤية التي يحملها عندما يتحدث عن الدعاء يقول: «**الدعاء مظهرٌ لنوعٍ من أنواع الإحساس والإشراق، وأروعُ تجلٍ لروحِ ومعنويات الإنسان**».

إن هذا لمثير حقاً، خصوصاً وأن كاريل هذا لم يكن كاتباً فيلسوفاً أو رجلَ دين، وإنما كان متخصصاً في العلوم الطبيعية ومجنداً نفسه للبحث حول الإنسان وحائزاً على جائزة نوبل في وصل العروق.

كاريل وعن طريق مطالعاته وتجاربه المباشرة، والتي اجراها على نماذج ومجموعات مختلفة من مرضاه، يصل إلى درجة أن يصدر حكماً علمياً (لا مجرد حكم للتبليغ الديني) بأن:

---

(١) «ALEXIS, CARREL» طبيب فرنسي معروف، حائز على جائزة نوبل في وصل العروق وله مؤلفات عديدة منها (المناجاة)، (الإنسان ذلك المجهول)...

(٢) لا أقصد هنا في استخدامي لكلمة «العلوم» العلوم الإنسانية أو الأدبية، وإنما أقصد بها «science» العلوم من مثل: الفيزياء والرياضيات والكيمياء.

«حاجة الإنسان للدعاء كحاجته للتنفس والأكل والماء فهي حاجة عميقة الجذور، تنبع من أعماق الفطرة والطبيعة الإنسانية، وأن الأكل والنمو والتكاثر، والدعاء، أربع أبعادٍ أساسية لروح الإنسان».

ويذهب إلى أكثر من ذلك حيث يقول:

«ما من أمةٍ في التاريخ، وما من حضارةٍ في الماضي، بادت وزالت إلا وكان أهلُها قبل ذلك أهملوا أو نسوا الدعاء».

فالدعاء ليس مجرد مخدِّر مهدّيء ومسكّن للآلام، وإنّما الراحة والاطمئنان التي يبعثها الدعاء في الإنسان، وليدةُ أرواءٍ لروحِ الإنسان المضطربة الحائرة وأشباعٍ لحاجاتها الفطرية العميقة، فالمخدر عاقبتُه الضعف والموت، بينما الدعاء يمنح الإنسان القوة ويبعث فيه النشاط والحيوية وهو عاملٌ مهمٌ في تفتح أحاسيس وعواطف وطاقات الإنسان الباطنية الغامضة ثم يقول: **«ما دقّ الدعاءُ باباً إلا وفُتح في وجهه»**.

«في ليل العقل المظلم، يرتقي الدعاء محلّقاً بعشقه إلى أعلىٰ قمة للمعنى، في الوقت الذي تعثر فيه فرس العقل»[1].

---

(١) إن جملته هذه لجملة عظيمة، لا يعرف مقدار عظمتها إلا أولئك الذين يعطون لبعض الجمل من القيمة ما يعطيه الناس لبعض المخترعات والمكتشفات.

يستهل كتابه «**المناجاة**» و«**الدعاء**» بهذه الجملة:

«**إن قيمة العقل عندنا نحن الغربيون أعلىٰ بمراتب من عتبات العشق**».

وفي النهاية يختتم كتابه بهذه الجملة:

«**يا ليت إنسان هذا العصر يدرك عظمة وجمال الخالق كما يدرك عظمة وجمال العلم، ويصغي إلى كلام باسكال كما يصغي إلى كلام ديكارت**»[١].

كما سبق لي أن ذكرت في كتاب الدعاء (في احدىٰ محاضراتي في حسينية الإرشاد قبل عدة سنوات)، فإنه من الممكن أن نطلق على مدرسة الإمام السجّاد عليه السلام في التاريخ الشيعي، مدرسة الدعاء، وما أريد طرحَه لهذه الليلة من أفكار ليس تكراراً لما سبق ولكن هذه الأفكار ستكون أكثر وضوحاً عند الأشخاص الذين طالعوا هذه الكتب وقرأوها، كنت قد ذكرت ما قاله كاريل بأن الدعاء والمناجاة والعبادة وعلى مر التاريخ وفي جميع الأديان[٢] كانت تقوم على ركيزتين

(١) ديكارت: «DESCARTES» فيلسوفٌ عقلي كبير لا تزال أفكاره وأراءه ونظراته تحكم حضارة عالم اليوم، وامّا: «باسكال»: فإنه يمثل فوران العشق والحب والإحساس والروح في تاريخ أوروبا الحديث.

(٢) لأن المناجاة والدعاء من إبرز مظاهر وتجليات الإحساس الديني.

أساسيتين، أي أنها تجلٍ لنوعين من الإحساس والحاجة في روح الإنسان؛ الأول وهو حس الفقر بمعنىٰ الإحساس والشعور بالحاجة والنقص، فكما أن الإنسان ولأجل رفع حاجاته المختلفة وتأمينها يتوسل بهذا وذاك، وينشط جاهداً في البحث عما يحتاجه، فإنه يشعر أيضاً بنوع من النقص في أعماق روحه أو في مصير حياته وأن التجلّي والمظهر الخارجي لهذا الإحساس بالحاجة والنقص هو الدعاء، ولهذا فإن جذور الدعاء والحاجة واحدة.

وعلى هذا تارةً يكون الدعاء تجلٍ للشعور بالحاجة وطلب الشيء الذي يفتقده الداعي، وتارة يكون تجلٍ لأمرٍ اسمى وأرقىَ يعني تجلٍ للعشق، ومع أن العشق هو واحدٌ من حاجات الروح، ولكن لكونه حاجة تختلف تماماً عن غيرها من الحاجات لكونه ذا طبيعة غامضة وكشعلةٍ ملتهبةٍ في أعماق الروح الإنسانية، وأكثر من أي شيء آخر تأثيراً في حياة الإنسان وأكثر من أي شيء آخر مجهولاً عنده، اعتبر حاجة مستقلة عن الحاجات الأخرىٰ ومتميزة عنها. وأنه لمن أرقى واسمىٰ أنواع الدعاء، ذلك الدعاء الذي ينبع من أعماق روحِ عاشقة (تحسن وتتذوق العشق).

ما هو العشق؟ قد عرفوا العشق بمئات التعاريف، ويمكن

تعريفه بأكثر، ولكن أفضل وأعمق تعريف للعشق حسب اعتقادي هو هذا «إن العشق وليدُ الوحدة، والوحدة وليدةُ العشق».

الوحدة ليس معناها أن يكون الإنسان بلا أحدٍ وما من إنسان حوله، لأن الشخص الذي لا يشعر من أعماقه بالحاجة إلى الارتباط والتواصل أو لا يحس بالانشداد أو الانجذاب إلى أي شيء آخر أو شخصٍ آخر، فإن هكذا شخص حتى وإن كان وحيداً فريداً، لن يشعر بالوحدة، وعلى العكس من ذلك، فإن الشخص الذي يشعر من أعماقه بالحاجة إلى هكذا ارتباط وعنده هكذا تعلّق وانجذاب نحو شيء ما أو شخص ما ثم يبتعد عنه هذا الشيء أو هذا الشخص، وينقطع الاتصال والتواصل معه، فإن هكذا شخص حتى لو كان في جموعٍ غفيرة من الناس سيئِنّ ويشكو من الوحدة، وستكويه نارُ الغربة.

إن هكذا روح، من الممكن أن تحترق بنار عشقٍ أرضي أو نار عشقٍ ما ورائي، هي الموجدة للعبادة، وفي أعلى أشكال اكتوائها واحتراقها (تحرّقها)[1] توجد نوعاً من المناجاة أو الدعاء يسميها كاريل، المناجاةُ الوليدة العشق.

(١) الشكوىٰ وبث النجوىٰ الممزوجة بالألم، والمفعمة بالأمل الأمل بالوصال وانتهاء الانتظار، وانقضاء زمن الهجر والبين والفِراق.

وعلى هذا هناك نوعان من الدعاء، ينبثقان عن نوعين من الحس الإنساني،

الأول: منهما حس الحاجة والعوز،

والثاني: حس العشق العرفاني، وأنّا على معرفة بكلا النوعين إلا أن الإسلام حافظ على هذين البعدين الأساسيين وأضاف إليهما بعداً ثالثاً ـ على حد علمي واطلاعي ـ يتفرّد به الدين الإسلامي عن غيره من الأديان، وهو عبارة عن البعد التوعوي الفكري، أو قسم الحكمة حسب اصطلاح الإسلام نفسه الذي أضاف هذا البعد إلى القسمين الأخرين إبراز الأحاسيس والعشق، وإظهار الحاجة والفقر والعوز من قبل الداعي، وهذا يعني أن أي متن كامل لأي دعاء إسلامي معتبر ومُسند، يتوفر على هذه الأبعاد الثلاثة يشبع ثلاثة من الحاجات؛

الأول: تجلٍ للفقر والحاجة.

والثاني: تجلٍ للحس العرفاني العاشق، المناجاة وبث الشكوىٰ مع المعشوق.

والثالث: التعليم الفكري وتزويد الراعي بمعرفة فلسفية وعقائدية تزيده وعياً بذاته، وبالعلم من حوله؛ وهنا بالذات تتغير جهة وحركة الدعاء بشكل كامل؛ لأن جهة الدعاء

المعتادة هي من الإنسان نحو المعبود والخالق أي الله، وأمّا في البعد الثالث التعليمي فالمسألة ليست كذلك، فالراعي حال الدعاء، إنما يكون في حال خطاب مع نفسه، وذلك لأن الاهتمام في هذا البعد إنما يكون منصَّباً على الجانب التعليمي وجانب الحكمة «**وسأذكر نموذجاً لذلك فيما بعد**» وليس في مَعْرض السؤال أو الطلب من الله؛ لأن المخاطب في هذه الحالة هو الله؛ كما أننا لسنا في معرض تبيين لأحاسيسنا العرفانية والعبادية ومشاعر شوقنا وحبنا للمحبوب والمعبود؛ لتكون جهة وحركة الأحاسيس منا نحو الله؛ بل إننا في هذا البعد الثالث والذي أسميتُه بالبعد التوعوي والبعد الأيديولوجي أو الإعتقادي أو بُعد التعليم الفكري؛ في نفس اللحظة التي ندعوا فيها الله ونخاطبُه، فإننا في حالة خطاب مع أنفسنا مما يجعل الدعاء أشبه ما يكون بالدرس

وأمّا الشيعة، فبسبب المسير التاريخي والإجتماعي الخاص الذي اتسم بالصراع مع الجهاز الحاكم، وبسبب عدم توفرهم على وسائل الجهاد، وحرمانهم من حق بيان الرأي والكتابة لتبيين آلامهم وشعاراتهم الإجتماعية والعقائدية والفكرية ومنعهم من طرح مطالبهم وأفكارهم، وأُصول عقائدهم أو تبيين الآلام والآمال الأساسية لفرقتهم سواء أمام أتباعهم أو الآخرين، جعلهم يتخذون الدعاء وسيلة للجهاد

ولكشف النقاب عن المسار التاريخي الخاص للشيعة، ماضيهم، مصائبهم، الفظائع التي ارتكبت بحقهم، طموحاتهم وآمالهم، الجنايات والمظالم التي تعرضوا لها، القتل والتنكيل والمطاردة والجلد والاستشهاد، والتي تشكل بمجموعها السيرة التاريخية للشيعة في تاريخ الإسلام، والتي انعكست بوضوح في متون أدعيتهم وزياراتهم لأئمتهم.

هنا بالذات ارتقىٰ الدعاء، ليصل في الدعاء الشيعي إلى أروع وأكمل أشكاله وصوره، ليجمع بالإضافة إلى التحدث مع الله (كما كان عليه دائماً) نوعاً آخر من الحديث، ولهذا كان الدعاء الشيعي يمثل أرقىٰ وأكمل مدارس الدعاء، لتوفره على أربعة أبعاد:

١ ـ الفقر والحاجة.

٢ ـ العشق والحب الإلهي.

٣ ـ البعد التوعوي.

٤ ـ المبارزة والجهاد[١].

---

(١) لأن الوقت قد تداركنا، وكتعويض عن إطالتي الكلام في الليلة الماضية سأقتصر على ذكر نموذج واحدٍ من الصحيفة السجادية، وذلك بهدف توضيح المنهج فقط، وأمّا النماذج الأخرى التي كنت قد انتخبتها لشرح وتبيين هذه الأبعاد الأربعة، فعليكم أن تتابعوا البحث فيها بأنفسكم.

إذاً هناك ثلاثة أنواع للدعاء:

أولها: الدعاء بقصد الثواب (أرجوكم أن تدققوا جيداً)[١]، لأن لي غرضاً وقصداً خاصاً من استعمالي لكلمة الثواب وإلا فمن المسلمات أن كل شخص متدين يعتقد بالثواب «**أعني ذلك المعنىٰ الخاص والمتعارف في مجتمعاتنا للثواب**».

والثواب الذي بهذا المعنى ـ «**أدعُ بهذا الدعاء لأعطيك لقاء فعلك ذلك. هذا الأجر**».

فهو في النهاية نوعٌ من العمل، كما لو أننا قلنا للطفل: اكتب هذه الوظائف الخمسة لأشتري لك دراجة، فالطفل يضطر ولأجل هذه الدراجة أن يكتب الوظائف ولو تبين له من طريق ما، أنْ لا دراجة في البين، عندها سوف يتقاعس ولن يكون لكتابة هذه الوظائف الخمسة أي معنى عنده، إذاً لاالعلّة الغائية لإنجاز هذا العمل كانت شيئاً خارج عن هذا العمل،

(١) لأن هذه المسألة حساسة، سواء من حيث المفهوم أو من حيث الموضوع، ومن الممكن أن لا يحصل الاستيعاب الجيد لما أريد أن أطرحه وأذكره وبالتالي ربما يصطدم هذا مع بعض الأذواق والسلائق وبعض العقائد، مما يؤدي إلى إيجاد نوعٍ من سوء التفاهم، مع أنه لا يوجد في الأصل أي تعارض أو اصطدام.

وفقط في هذه الحالة يمكن لهذا العمل أن يُنجز «**والذي لا ينفعني بذاته ولا يؤثر عليّ، بل ربما يكون مملاً وصعباً وشاقاً بالنسبة لي**» وذلك عند الحصول على مقابل لقاءه، وهذا المقابل يقدمه ذلك الشخص المستفيد، والذي عاد عليه العمل بالنفع والفائدة، أو كان العمل محل طلبه ورضاه، فعندما يُقال لي:

إقرأ هذا النص أو الدعاء لنعطيك لقاء ذلك هذا الأجر. فمن الواضحات بالنسبة لي أن قراءة هذا النص أو الدعاء لن تعود عليَّ بشيء، ولن يكون لها أي تأثير عليّ فالمسألة هي أن صاحب العمل أو المدير العام قد أوصىٰ وعنده رغبة في انجاز هذا العمل، وهو قراءتي لهذا النص ولأن هذا العمل يعود بالفائدة عليه فقط، ولأن فيه سعادته ورضاه لا سعادتي أو نفعي، أُنجز ذلك العمل لأحصِّل بارضائه أُجرتي التي فيها سعادتي ورضاي، ومن الواضحات أنه في حال عدم وجود ذلك الأجر أو المقابل، فإن أيّ منطق لن يفلح في إجباري على القيام بهذا العمل.

للأسف إننا وفي تربيتنا الدينية لأطفالنا نتبع معهم نفس هذا الأُسلوب، ونتعاطى معهم بنفس الطريقة، أي كما أننا نجبرهم على الدرس والوظيفة دون أن نوضح أو نبين لهم أو

نفهّمهم ماذا يعني الدرس؟ ماذا تعني الوظيفة؟؛ نطلب منهم أن يقرأوا دروسهم وأن يكتبوا وظائفهم على أن نعطيهم مقابل ذلك طعاماً شهياً أو نأخذهم في نزهة أو إلى السينما أو نشتري لهم لباساً جديداً أو دراجة أو حلوى؛ ولهذا ينشأون ويكبرون على ذلك وينطبع في أذهانهم منذ البداية أن الذهاب إلى المدرسة، والحضور في الصف، وقراءة الدروس، وكتابة الوظائف، لا تكون إلا لهذه الأمور، فإذا ما فُقدت هذه الأمور، فقدت هذه الأعمال قيمتها عندهم، وباتت لا تنفع إلا لأبائهم الأعزاء.

لهذا عندما نقول للناس، للشاب، للطفل، أن قيامك بهذه الأعمال سيوجب لك من الناحية الدينية، إعطاءك هذا الأجر، فإننا نكون بذلك ومنذ البداية قد غرسنا في ذهنه وقلبه وأعماق شعوره أن نفس هذه الأعمال الدينية ليس لها أي أثر ايجابي عليك أنت الذي قمت بها، وما هي إلا أوامر صادرة عن الله وموجبة لرضاه، ولهذا عليك أن تقوم بها كأمورٍ مفروضة عليك، كأمورٍ تعبدية، وكأوامر لا يمكن التخلف عنها، لتُعطىٰ في مقابل هذه الأعمال وهذه الرياضات التي تتحمل أعباء القيام بها عوضاً، على صورة أجر اسمه الثواب، فعندما نقول لشخصٍ ما إذا قرأت زيارة وارث خمس مرات فسوف نعطيك الأمر الفلاني مثلاً ـ وجبة غداء دسمة أو

عسلاً. . . فهذا معناه أننا لا نعتقد أن في قراءة الزيارة نفسها أية قيمة أو نفع على القارىء. بل أننا نكون بذلك قد قدمنا الزيارة على أنها مجرد وسيلة تساعد القارىء في الحصول على لذائذ هي في الأساس خارجة عنها، ولا تجانسها بل ليس لها أي ارتباط بها، وأرجو التنبيّه إلى أن الثواب الذي ذكرتُه إلى الأن هو الثواب (وفق الفهم والتلقي الرائج والحالي له) وإلا فإن اصطلاح الثواب من الاصطلاحات الإسلامية الأصيلة والصحيحة والعميقة جداً؛ وإنما قصدي من الثواب الإسلامي الأصيل[١]: هو ذلك الثواب الذي يعتبر نتيجة منطقية وطبيعية ومعطىٰ عقلي وضروري لعمل ديني أو عبادي، إن الثواب بهذا المعنى في منتهى المنطقية، ومنتهى العقلانية، والعلمية والصحة.

وعلى هذا هناك نوعان من العمل، تارةً نطلبُ من شخصٍ ما أن يحمل لنا مجموعة من أحجار البناء وأن ينقلها إلى الطابق العلوي للمنزل، فهذا الشخص ومع أنه لا علاقة له أصلاً بأحجار البناء هذه، ولا بالبناء الذي يبنىٰ بها، بل هو

---

(١) . . . مع أنه لا يوجد ضرورة لذكره الأن، إلا أنهم قالوا: إذا طرحت فكرة ما فعليك أن تشبعها بحثاً وتحقيقاً وتتناولها من مختلف الزوايا وأن تأتي بالردود المناسبة الداعمة لها، ولكي لا نقع بنفس الخطأ الذي وقعنا فيه في كتابنا «پدر، ما در ما متهميم» «أبانا، أمنا، نحن المتهمين».

مجرد شخص كان يمر في مكان ما، فاقترحنا عليه أن ينقل لنا هذه الأحجار على أن نعطيه لقاء كل حجر يحملها وينقلها (١٠ تومان) وهو بدوره قبل تحمل عناء هذا العمل الشاق، وذلك لأجل هذه التومانات والتي يحتاجها لأجل أمرٍ آخر، فينقل هذه الأحجار ويأخذ أُجرته، والتي تمثل ثواب عمله، مع أن هذا العمل بذاته لم يعُد عليه بالفائدة ولم يكن في مسير هدفه وحاجاته وإنما كان هدفاً لشخص آخر، شخصٍ آخر كان محتاجاً لهذا العمل وهو صاحب المنزل الذي سيُبنى بهذه الأحجار.

وتارةً أخرى نطلب من الشخص أن يمارس الرياضة لأن فيها تقوية لبدنه وجسمه، فيمارسها ويقوىٰ لذلك بدنُه؛ فالقوة البدنية التي اكتسبها هي ثواب ممارسته للرياضة وهي أجرَه من هذا العمل، وهو ثوابٌ أصيل. وتارة أكون أنا نفسي محتاج لبناء بيت، ولهذا أقوم بحمل ونقل أحجار البناء إلى الموقع الذي سأبني فيه البيت وبعد أن أبني البيت، اسكن فيه، فيكون على هذا نفس سكني فيه ثوابٌ لعملي.

إن ما نقوله لأولادنا اليوم، وما ندعوا الآخرين للقيام به من الأعمال الدينية، إنما هو نوعٌ من الفرض لأعمالٍ لا يدركون حكمتها أو نتائجها أو الغاية منها، ولأمورٍ لا تقضي=

لهم حاجة من حاجاتهم، بل لأنها أمر فعليهم أن يطيعوا، وإذا ما أحسنوا الطاعة، فسنغدق عليهم بأنواع العطايا، وأمّا إذا لم يُعْطَوا لقاءها شيئاً فعندها ستفقد هذه الأعمال أي قيمة لها عندهم، لأن هذه الأعمال فقدت أهدافها وغاياتها أصلاً.

وتارة يكون الثواب ذا معنىٰ آخر، كقولهم لك أن زيارة وارث تصور لك التاريخ البشري وتقدمه لك وفق نظرة إنسانية راقية، كما أنها تحدد لك معالم التاريخ والماضي البشري، معالم الدنيا جميعاً، معالم الحاضر والمستقبل، ومعالم حركتك في الحياة بشكل عام وحياتك الإجتماعية بشكل خاص، وتعرّفك بقدراتك الفردية، كما أنها تصنف لك وتشرح وتبين جميع حوادث ونهضات وشخصيات وحروب هذا العالم وصراعاته، فأنت وقبل قراءتك وتأملك في مضامين هذه الزيارة، كنت أنساناً أعمىٰ وجاهل، ولا تدري ما التاريخ؟ وما الوراثة؟ وما سير الزمان؟

ولكنك وبعد قراءتك لها أصبحت إنساناً أكثر وعياً وفهماً وأكثر إيماناً واعتقاداً وأكثر معرفة واطلاعاً في رحاب الرؤية الكونية التاريخية الواسعة، وهذا هو ثوابك بالذات.

وعلى هذا إذا لم تقرأها فستحرم من ثوابها، وتتحول إلى إنسانٍ أبكم عاجزٍ عن الافصاح عمّا في ضميره متحير قلق،

وإلى إنسان جزئي النظرة، جاهل بفلسفة التاريخ والحياة؛ وسيغدو الحسين وثورته ونهضته في نظرك الضيّق مجرد ثورة لم تدم إلا ساعات من صبح عاشوراء إلى ما بعد ظهرها، على حين لو أنك تقرأ زيارة وارث بدقة وعمق وتفهّم فستتجلىٰ لك عاشوراء بأبعادها الحقيقية وستمتد وتتوسع هذه الساعات لتغطي الفترة ما بين فجر الإنسانية إلى غروب شمس تاريخها.

فأن نقول لشخصٍ ما قم بهذا العمل لتجني ثماره الذاتية هذا شكلٌ، والشكلُ الآخر أن تقول له: اقرأ هذا الدعاء مثلاً، نعطيك الأشياء الفلانية والأجر الفلاني وعلى هذا لا يجد هذا الشخص نفسه في الحالة الثانية ملزماً على أن يقرأ هذا الدعاء بتمعُّن وتفّهم، أو أن يفكر ويتأمّل بمعانيه ومضامينه، أو حتى أن يشغل نفسه بالتأكد من صحة فهمه أو عدمه، وإنما يكتفي بقراءته خمس مرات مع رعاية القراءة السليمة والتلفظ الصحيح للحروف، والحفاظ على تزييناته وجمالياته الظاهرية وعلى كونه على وضوء أثناء القراءة ومتوجهٌ نحو القبلة وعلى هذا الوصول إلى الأجل الذي خصص لقراءته، ذلك الأجر الخارج عن هذا الذي قرأه ولا يرتبط به من قريب أو بعيد: هذا نوعٌ من الدعاء ونوعٌ من الثواب. وهناك نوعٌ آخر من الدعاء؛ وهو الدعاء الذي نستعيض به عن تحمل المسؤوليات والواجبات الملقاة على عاتقنا، والتي لم ننجزها تقاعساً وكسلاً منا؛

ونستعين به للحصول على أشياء لا تُحصَّل إلا بتشغيل الفكر والذهن، بالتخطيط والعمل المدروس، بالإرادة القوية والشجاعة، بالتضحية والفداء، بالوحدة والتضامن، بالتحمل والصبر... الخ.

أي أن نجعل الدعاء بديلاً عن تحمل المسؤولية أو العمل أو أداء الوظيفة، فمن المسلمات أن طريق الدعاء أكثر راحة ويسراً من طريق بذل الجهد والعمل وتحمل المشاق ومما لا شك فيه أن مجرد قراءة متن دعاء يضمن لك أن تُحشر مع شهداء بدر السبعين، أكثر راحةً ويسراً من أن تُعرّض نفسك للخطر بحضورك في جبهات الجهاد والمبارزة لتسقط شهيداً عادياً، فالأول مضمون النتيجة فقط عليك أن تقرأ هذا الدعاء لتكون من شهداء بدر السبعين، وأمّا الثاني فإنه يكلّف الكثير من الجهد والتعب وتحمل المشاق، ونتيجته غير مضمونة بل حتىٰ الشهادة فيه ليست مؤكدة؛ كما أنه وبدل العمل وامتلاك التكنولوجية والتقنيات المتطورة والتعليم الهندسي والصناعي، والاستفادة الجيدة من القوىٰ الإنسانية العاملة، والاستثمار، وبذل الجهد والصبر، وتحمل الصعاب والمشاق، واستخراج الثروات ومحاربة الكارتالات والاستعمار الاقتصادي للعالم وأمثال ذلك بدل جميع هذه الأمور وللحصول على القوة والثروة، ما أجمله وأسره من طريق أن نجلس في بيوتنا

ونعتكف في مساجدنا ونسأل الله ربنا أن يمنحنا القوة والثروة وكم هو جيد ومريح أن ندعو لمريضنا بالشفاء والعافية ونخلد للراحة عن البحث والدراسة والسعي الدؤوب للكشف عن علاج المرضى ودواءٍ لسرطانه.

طالما أن هناك طرقٌ بهذه السهولة، فلماذا على الإنسان أن يشغل نفسه ووقته في أعمالٍ صعبةٍ وشاقة إنه نوعٌ ثانٍ للدعاء، من أجل الفرار والهروب عن تحمل المسؤوليات التي يلزمنا بها الدين والعقل والإنسانية والأخلاق الإجتماعية والحياة الفردية، فالدعاء هو البديل عن كل ذلك.

وأمّا النوع الذي نعتقد بحقانيته وعلميته مئة بالمئة ونعتبره أرقى أنواع الدعاء، فهو النوع الثالث والرابع منه اللذان يعتبران مظهرين من مظاهر الدعاء في التشيع العلوي والإسلام[١]،

فالدعاء أحياناً ما يكون بعنوان طلب شيءٍ ما من الله ولكنه لا يكون بديلاً عن الفكر والعلم والعمل وتحمل المسؤولية والإرادة والعذاب والمشقة وبذل الجهد، بل يكون في صف هذه المسؤوليات وهذه العوامل من أجل الحصول على الشيء الذي يحتاجه الإنسان، أي أنك إذا أردت شيئاً ما

(١) عندما أذكر التشيع العلوي إنما اقصد به الإسلام لأنهما مترادفان.

فعليك أن تُهيء أسباب الوصول إليه ومن جملتها الدعاء، فالدعاء هو مقدمة من المقدمات للحصول على الشيء، لا أنه بديل عنها، وهذا هو المنظور الإسلامي والعلمي للدعاء، ولهذا فإنك إذا سألت الله شيئاً فإن الله سيعطيك إياه، طبعاً إذا هيّأت جميع الأسباب والمقدمات والشرائط اللازمة للوصول إلى المراد من عملٍ وعلمٍ وسعيٍ وجهد وتحمل للمسؤوليات وإرادة قوية وشجاعة، فالدعاء لا يكون فعالاً إلا إذا توفرت هذه الشرائط والعوامل، وهو ليس بديل عنها وإنما هو واحدٌ منها، وهذا ما نلمسه في حياة أئمتنا الكرام فالنبي نفسه والأئمة أنفسهم، الإمام علي، الإمام الحسين عليه السلام، كانوا يدعون، ومعلومٌ ما كانوا يصنعون فلم يكن عملهم الخلود إلى الراحة، أو الهروب من المسؤولية أو الإنزواء والجلوس في زوايا بيوتهم أو محاريب مساجدهم والدعاء هناك بالنصر على أعدائهم، وبالخير والصلاح لمجتمعاتهم، بل كانوا أناساً عاملين، مجدِّين، مثابرين، ينزلون ساحات الوغىٰ، ويجاهدون كل من بغىٰ، يسوسون البلاد ويسوقونها نحو الرشاد، يدبرون أُمور الرعية دائبين من الصباح إلى العشية، لا يعرفون التعب. وهم من خوف التقصير في نصب، نعم هكذا كان أئمتنا عاملين داعين، واليوم وفي مقابل هذه الجرائم البشعة والفظائع التي ترتكب بحق المسلمين في العالم والتي استنكرها وشجبها

وتظاهر ضدها حتى الملحدون من أصحاب الضمائر الإنسانية الحية. نجد من المسلمين جماعةً يؤثرون الصمت على التكلم، ليس لهم صوتٌ ولا صَدَىٰ حتىٰ الأخبار لا يستمعون إليها ولا يولونها أي أهمية، ولكنهم وعندما يفتقدون أحد أصدقائهم (الأصدقاء الرسميين السمينين) فلا يجدوه، يصبهم القلق والانشغال عليه، وإذا ما تعرضت مصالحهم والمناصب التي هم فيها لأدنىٰ خطر تجد أصواتهم قد طاولت أعنان السماء، ووصلت إلى العرش، وتستيقظ آنذاك ضمائرهم لتعرف معنى المسؤولية، ويبدأ الركض والهرولة لئلا يتخلفوا أو يتأخروا ولو قيد أنملة عن تحمل مسؤولياتهم وآداء واجباتهم، عندما يرىٰ هؤلاء الإسلام كطائرٍ أسير كسير الجناح بين مخالب عُقبان الدنيا الجانية المتعطشة للدماء، تتلاعب به كيف تشاء، ولا تحرك فيهم هذه المجازر والفظائع اليومية حتى حس الفضول لمطالعة أخبار الصحف أو سماع الأخبار من المذياع أو التلفاز، فعندها أي أثرٍ سيكون للدعاء؟.

ولقولنا: ربنا نسألك بكرمك أن تتفضل على المسلمين بالنصر و. . . . الخ؟ فالدعاء له قانون وله سنن أو نسينا درس أُحُد؟ حيث كان القائد نفسُ رسول الله، وحاملُ لواءه علي وجنوده هم الأنصار والمهاجرين، أو نسينا كيف مُنِيَ المسلمون بهزيمة قاسية، لمجرد عدم التطبيق الدقيق لأوامر

رسول الله من مثل الرماة الخمسين الذين عين لهم مواقعهم وأمرهم أن لا يغادروا أماكنهم ما لم يأمرهم بذلك، فغادروها[١] فأصبحوا على ما فعلوا نادمين؛ مع أن رسول الله وبعد أن أعدّ العدة لكل شيء وهيّأ جميع المقدمات، تطرّف جانباً ودعا الله أن ينصر الإسلام والمسلمين، ولكن ما الذي حدث؟! مجرد عدم تقيد بسيط واستعجال من قبل الرماة، قلب كل الموازين وحول النصر إلى هزيمة وجعل دعاء النبي بلا أثر.

إن الدعاء الإسلامي العلوي الأصيل هو هذا؛ ان تهيء جميع المقدمات والأسباب ثم تدعو، حتى في حرب الخندق نجد رسول الله. وقبل شهرٍ أو شهرين من الواقعة يأمر المسلمين بأن يجمعوا الأشواك والأعلاف الموجودة في الوادي أطراف المدينة، وبأن يحصدوا الحقول والمزارع قبل أوان حصادها، وأن يجنوا الثمار والفواكه قبل نضجها وأن يقلعوا بعض أشجار النخيل ويجمعوا أوراقها، ثم يصدر أمره بعد

(١) إن هؤلاء الرماة لم يخونوا المسلمين أو يتعاملوا مع الأعداء ضدهم أو هربوا إلى بيوتهم، وإنما المسألة أنهم ظنوا العدو قد خسر المعركة وهُزم. ولهذا تركوا مواقعهم وذهبوا لجمع الغنائم مع أن رسول الله كان قد أوصاهم أن لا يغادروا مواقعهم ما لم يأمرهم، ولكن حدث ما حدث والتف العدو على المسلمين وأعمل فيهم القتل وحول الخسارة إلى نصر له.

ذلك بحفر الخندق، ويساهم صلوات الله تعالى عليه وعلى آله بنفسه في عمليات الحفر وسحب التراب والاحجار، فهو يسعى لتهيئة جميع المقدمات التي تسمح بها الإمكانات حتى أنه استعار المعاول والفؤوس والمجارف وبعض الوسائل الأخرىٰ من يهود بني قريظة، واشترىٰ بعضها؛ فإنه أعد العُدة لكل شيء، فحصّن مواقعه وأحكمها، ورص صفوف قواته وهيّأها، بل إنه حاول الاستفادة أقصىٰ ما يمكن من جميع الإمكانات الفكرية والاقتصادية والإنسانية التي كان يملكها المسلمون آنذاك، فأعلن التعبئة العامة ثم رفع يديه بعد ذلك بالدعاء، سائلاً المولىٰ نصر المسلمين وتأييدهم، ولو أن عدة من أتباعه وأنصاره ـ الذين جندوا أنفسهم للجهاد خلف رايته ـ تقاعسوا عن أداء وظائفهم أو تهاونوا فيها، ولم يمتلكوا اللياقة الكافية للجهاد في الصف الذي وضعُوا فيه، لذهب دعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم أدراج الرياح، وما بقي له من أثر. . . وإلا لماذا كان النبي يُهزم؟ ولماذا كان علي يُهزم؟

فالدعاء يلعب دوراً مكمّلاً ورافداً لجميع هذه العوامل والتجهيزات ولجميع هذه الأسباب والوسائل بل هو واحدٌ من هذه العوامل، يعني إذا أردت شيئاً ودعوت الله أن يرزقك إياه، فإن الله يعطيك إياه ولكن على أن تسعىٰ له سعيه، وعلى ما يقوله كاريل: فإن الصور التي أخذت لأحد المرضىٰ المصابين

بالسل العظمي، قد أظهرت أن عظامه قد اسودت ونفذ المرض فيها ولا بد من بترها وقطعها، وعندما أعدّ هذا المريض نفسه وهيّأها لأجراء العمل الجراحي، وسلّم أمره إلى الله، وفي الليلة التي ستجري في غدها العملية، وفي خلوةٍ مفعمةٍ بالصفاء الروحي والإشراق النفسي والالتياع العشقي وفي حالة غير عادية من الانقطاع والتوجه إلى الله، يتعافىٰ المريض وبصورة مفاجئة واعجازية، بحيث أن الصور التي أُخذت للمريض في غد هذه الليلة، لم تثبت أن المريض قد شفي فحسب بل حتىٰ أظهرت بقول كاريل أن جميع الآثار العضوية للمرض قد زالت، إن هذا مثالٌ نقلتُه عن كتاب كاريل ـ المناجاة ـ والذي ترجمته بنفسي ـ وليس من عندي أو من عند من هم أمثالي، بل هو من عند من هو مرجع وسند في هذا الأمر وإلا فإن الأمثلة على ذلك كثيرة، وموجودة في كل مكان ففي مشهد، مدينتنا (وقبل عدة سنوات وفي مشفىٰ شاه رضا) حدث ما هو مشابهٌ لهذه القصة التي ذكرها كاريل وبشهادة أطباء ومتخصصي قسم الجراحة في المشفىٰ ويمكنكم متىٰ شئتم أن تتأكدوا بأنفسكم، فإضبارة المريض وملفه لا يزالان موجودان في نفس هذا المشفىٰ ويمكنكم رؤيتها، أمّا أنا فلم اكتفي بنقل هذه القصة عن لسان أطباء المشفى، وإنما أنقل ما هو موثّق.

وأمّا ما أُريده لهذه الليلة فهو الإشارة إلى نوعٍ ثانٍ من الدعاء وتأثيراته، فمن المسائل الجديرة بالطرح والدراسة، مسألة دراسة تأثيرات الدعاء على نفس الداعي وسلوكه وخُلُقِه، أي أن يكون الدعاء عبارة عن وسيلة لطلب الحاجات من الله، هذه مسألة وهي مسألة إسلامية وعلمية لا غبار عليها ولكن المسألة الأخرى الأهم والتي من المؤسف أنها لم توضح أو يتحدث عنها بشكل جيد، أو لم يتحدث عنها أصلاً؛ هي مسألة دراسة وتبيين أثار نفس الدعاء والمناجاة والعبادة كعوامل تربوية ومربية لروح وذات الداعي ومن هنا بالذات تطفو على السطح أهمية طرح العديد من المسائل الهامة والأساسية، ومن المؤسف أن نرىٰ البشر وعلى مر التاريخ قد توجهوا نحو العقل وتنميته وأهملوا الكثير من الطاقات الموجودة في فطرة الإنسان ووجدانه وحسه العرفاني والإشراقي والتي تعتبر من الذخائر والثروات المعنوية العظيمة في الروح الإنسانية، مما أدىٰ إلى أصابتهم بقول كاريل بنوعٍ من الانتروبية؛ وشيئاً فشيئاً وعلى أثر عدم الاستعمال تزوي هذه القوى وتضعف وتموت لأن الأعضاء النفسية والمعنوية للإنسان هي كأعضائه البدنية والجسمية، يتأثر نحوها بدرجة الاستعمال وعدمه بل ربما تموت على أثر عدم الاستعمال الدائم.

وفي المقابل هناك من البشر من اهتموا وانشغلوا وبشكل

كامل بتنمية القوىٰ الباطنية والجوانب المعنوية والحس العرفاني والاشراقي لديه، ووصلوا في ذلك إلى أعلىٰ مراتب، وحازوا على كرامات ومقامات رفيعة جداً، ولكن انشغالهم المحموم هذا بالمعنويات والروحانيات انعكس سلباً على نموهم العقلي؛ من المؤسف حقاً أننا نجد أنفسنا كبشر وعلى مر التاريخ قد أُصبنا بداء الحضارات العقلية، كحضارة اليونان أو الروم، أو مثل حضارتنا القائمة الآن مضحين بأحاسيسنا الإنسانية وجميع ثرواتنا المعنوية من أجل الحصول على القدرة والعلم والمنطق والتنمية والمعرفة.

في احدى المحاضرات التي أُعلن عنها ولكن لم يكتب لها الانعقاد كنت أُريدُ طرحَ مسائل هامة وأساسية تحت عنوان (إنسان اليوم. مجتمع اليوم) ولكن ما المقصود من هذا العنوان؟

يمكننا القول أن البشرية تعيش اليوم ازدواجية المجتمع المتمدن والإنسان المتوحش ـ ولهذا يصعب علينا أن نصف إنسان هذا العصر بالمتطور أو المتخلف؛ إذ كيف يكون ذلك مع هكذا ازدواجية معقدة؟!!

مما لا شك فيهك أن المرحلة التي وصلتها البشرية من التقدم في مجالات العلم والمعرفة والنمو العقلي والمنطقي،

والمدنية والوعي الإجتماعي، وفي سيطرتها على الطبيعة وتسخيرها لصالحها مبهرٌ للغاية وليس لها مثيل.

وإن النمو التطور الذي حققه إنسان هذا العصر على الصعيد التكنولوجي والتقني، وعلى مستوىٰ العلاقات الاجتماعية ومختلف أبعاد الحياة الإجتماعية والفردية وصل إلى حد أن ما حققه في بعض المجالات من التطور والنمو في الأعوام ما بين ١٩٦٠ و١٩٧٠ لم يحققه طوال عمره منذ بداية التاريخ حتى هذه السنوات ومع هذا فإننا نشهد وفي حضارة هذا اليوم، فظائع وقبائح وأعمال مخجلة من قبل زعماء وشخصيات كبار، ومن قبل أيديولوجين ومؤسسين لثورات ونهضات ـ من اليمين واليسار ـ يخجل عن ذكرها جنگيز السفاح الجبار.

وفي المكان الذي من المفترض أن يكون مظهراً لتجلي حرية الوجدان والضمائر والعقول المتحضرة في هذا العالم المتمدن والمتحضر، والمسمى بـ(منظمة الأمم المتحدة) المدعية الحفاظ والدفاع عن حقوق البشر؛ يُقدم طلب للوقف الفوري لأعمال القصف الوحشية ضد الأبرياء من النساء والأطفال الذين لجأوا إلى العيش في الخيام بعد أن أُقصوا من ديارهم وأجلوا عن أوطانهم. فيقابل الطلب بالرفض، ومن

مهازل هذا الزمن، أن الدولة المعتدية والجانية نفسها لا تعلن عن مخالفتها للطلب.

وإنما الرفض يقع من جانب الدول الغربية.

ثم يأتي طلبٌ آخر مؤكداً لسابقه، يطالب بوقف أعمال القصف ضد الأبرياء من النساء والشيوخ والأطفال الصغار الذين لا ذنب لهم فيأتي الرد، هذا غير ممكن، أي بمعنى أخر، اقصفوهم واقتلوهم؛ لعمري أن جنگيز خان لم يكن كذلك!!

هذا هو وجدان وضمير القرن العشرين، وجدان منظمة الأمم المتحدة، المكان الذي يتم فيه التصويت على مقررات حقوق البشر؛ القرن الذي باتت فيه مؤسسات ومنظمات الدفاع عن حقوق الحيوان وحمايته أكثر من أن تُعد، القرن الذي يفتخر بلطافة روحه ورقة إحساسه وتساميه الإنساني، هذا هو القرن الذي أحياناً ما يهتز العالم فيه لأجل المساس بالحقوق الإجتماعية لإنسان ما، وأحياناً أخرىٰ تباد أُمة بأكملها وتُهجر وتُبعد عن ديارها ووطنها الذي تعيش فيه والذي عاشت فيه منذ الفين أو ثلاثة آلاف سنة، دون أن يرف لهذا العالم المتمدن طرفٌ أو تثار مشاعر.

بل الأدهىٰ من ذلك أن كلاً من الشرق والغرب راح يمد

السفاحين بالأسلحة ليستأصلوا هذه الأمة من الوجود؛ إنها وقائع وأحداث تحدث في القرن العشرين والأمم المتحدة شريكة وضليعة فيها.

نعم لقد نمت قدرات العقل البشري وتكاملت الرؤية العلمية العقلية في هذا القرن، حتى راح يفكر الإنسان بغزو الفضاء واختراق أقطار السماء، والنزول على سطح القمر وقد فعل، والتخطيط والبرمجة لمشروع الذهاب إلى المريخ بعد سنتين، وسيذهب وسيطوف أرجاء الكون حول نبتون والزهرة ثم يعود، إنها القدرة قدرة العقل؛

إن هذا الإنسان نفسه صاحب هذا العقل الجبار، عندما يولي الأهمية الكبرىٰ للفضيلة والعشق والإشراق والعرفان يصل إلى منازل ومقامات وكرامات اعجازية مُبهرة ويصل إلى درجة من اللطافة في الروح مثيرة، يصبح شخصاً كالحلاج، كبوذا، لا يمكن تصور مدىٰ عظمة أرواحهم؛ إلا أنه يصبح كالهند، يسيطر على مقدراتها ويحكم الخمسة مئة مليون إنسان فيها ضابطان انكليزيان يصبح كالهند، جائعةٌ، وتعبد البقر وتمتنع عن ذبحها تجنباً لإراقة الدماء.

أترون. تلك الأرض التي كانت تمتلك ومنذ خمسة آلاف سنة أفضل دائرة معارف في الدنيا، كيف تعاني اليوم

الجهل والأمية، كيف تعاني من الجوع والمرض والفقر، قد أبادها الجوع والقحط، لأنها أهملت العقل وأعطته إجازة طويلة الأمد واستغرقت في المعنويات والروحانيات حتى تحولت إلى بلاد متخلفة عاجزة عن تسخير الطبيعة والتحكم بها، سابحة في بحرٍ من الثروات والذخائر ولكنها لا تعرف كيف تستفيد منها وتسخرها لخيرها وتقدمها.

وهذه حال البشرية من التأرجح والنوسان بين تنمية العقل، والاستغراق في المعنويات والروحانيات، تارةً تصب جلّ اهتمامها على الأول وتهمل الثاني، وتارةً العكس، فإذا ما سقطت في وادي المعنويات تحولت إلى أمة ضعيفة، يهدد وجودها الجوع والقحط والسيل وتترصدها بالفناء أنواع المكروبات والأمراض والزلازل والرياح الباردة والرياح الحارة.

وإذا ما وجهت كل اهتمامها نحو العقل وتنمية قدراته تحولت إلى أمّة قوية تهدد المجموعة الشمسية، وتخترق جدار الصوت، إلا أنها بلا احاسيس ولا مشاعر بل أنها لا تملك من الأحساس مقدار ما يملك ذئبٌ من الإحساس الحيواني.

حتىٰ في الأوضاع والأحوال العادية الأمر كذلك.

فنحن أنفسنا في أحوالنا وأوضاعنا العادية في مطالعاتنا وأبحاثنا في أعمالنا الفكرية وفعالياتنا الاجتماعية نسلك السلوك

نفسه؛ فهنا في حسينة الإرشاد والتي تتعامل مع جيل الشباب المتعلم والمثقف؛ الجيل الذي يكون ذهنه أكثر من غيره مثاراً للشكوك والكثير من المسائل اللادينية والذي باتت عقائده الدينية الموروثة والتقليدية والتعبدية محل سؤال عنده بحيث لم يَعُد قادراً على تقبلها وحتىٰ ذلك المتدين من الشباب بات يريد تجديد النظر في جميع عقائده بهدف تقويتها وجعلها أكثر منطقية وعلمية وإقامة الأدلة القوية عليها، ومن أولئك من هم متزلزلي الاعتقاد في الأصل وآخرين منكرين مئة بالمئة لديهم إدعاءات كثيرة، جاءوا لطرحها وليسمعوا بعد طرحها جواباً أو يجيبوا سؤالاً، هنا وعلى أي حال عندما نطرح[١] مسائل دينية للبحث، فإن سير الحوار سوف يتحرك تلقائياً نحو البحث العقلي، ومن الطبيعي أننا وفي جوٍ كهذا، لا يمكننا أن نطلب من هكذا مستمع أن يصغي إلى كلامنا حول المسائل نفسها، بل نجد أنفسنا مضطرين إلى معالجة أعمق المسائل الاحساسية والعرفانية والإشراقية بأُسلوب عقلي واستدلالي وعلمي ليتمكن الطرف المقابل من قبولها وعندما نوجه جلّ اهتمامنا للبحث والاستدلال العقلي، فهذا معناه أننا سنبقىٰ بعيدين كل البعد عن المسائل العاطفية والاحساسية والجوانب العرفانية والإشراقية

(١) أنا نفسي دائماً أحس بهذا الأمر.

العميقة من الدين، وسينالنا الضعف في هذا الجانب، ونصبح والحالة هذه كطيرٍ نمىٰ واكتمل أحد جناحيه وبقي الآخر صغيراً ضعيفاً كجناح الفرخ الصغير، لا يفلح بالطيران وإن أفلح كان طيرانه مضطرباً وغير متوازن، وكذلك الأمر بالنسبة إلى أولئك الذين يرتادون محافل العرفان والاشراق الباطني ويهتمون أو يحصرون اهتمامهم في هذه الجوانب فصحيح أنهم يُشبعون من الناحية الأخلاقية والعبادية إلا أنهم يبقون في المسائل العقلية والعلمية ضعفاء إلى درجة أنه إذا ما تجرأ طالبٌ منهم وأثار إشارات الاستفهام أمام أساتذته حول مسألة من المسائل أو قال لماذا؟ استوحش منه الجميع ونظروا إليه شذراً فقط لأنه قال: لماذا؟ وكأن كارثة قد حلَّت، لذلك تجدهم لا يطيقون سماع أي رأي مخالف آخر، بل حتى لا يستطيعون درك أو فهم ما يقول، يصمون أذانهم إلا عن سائلهم ولا يدرون بما يجري في العالم من حولهم.

بل لا يعرفون حد وحدود بلاد المسلمين، وهم عمّا يجري على رؤوس أهلها بأذكارهم وصلاتهم وصونهم منشغلين، حدود العالم في نظرهم؛ لا تتعدىٰ حدود علّتهم.

وعلى هذا ترون كيف أن الإنسان[1] كلّما وجّه اهتمامه

(١) اتحدث عن نفسي قبل أي أحد آخر.

إلى جانب ما غفل وابتعد كثيراً عن الجانب الأخر وإحساسي الشخصي أن السبب الكامن وراء تخلف البشرية هو هذا الأمر، ولهذا فعلىٰ الإنسان أن يراقب نفسه مراقبة الطفل الصغير الحديث العهد بالمشي، من أن يقع في البئر أو حوض الماء أو في بيت الخلاء[١]، فعلىٰ الإنسان أن يكون دائم الحذر وإياه أن يخدع نفسه بقوله: الآن وقد ولّىٰ زمن الشباب ومضت معه الميول الطائشة والأهواء المستحكمة، فإننا في مأمن وأمان، لا أبداً ليس الأمر كما يظن فهناك الكثير من الناس الذين صاموا وقاموا لله ركعاً سجداً أربعين سنة ثم نقضوا صومهم وابطلوه بعذرة كلب، إن هذا لمثالٌ كلنا معرضون للابتلاء به، ولهذا علينا أن نضع أنفسنا تحت حماية ورعاية وحفظ قدرة هي فوق إرادتنا وفوق كل إرادة، وأن أحد أعمال وثمرات الدعاء والمناجاة هو هذا الأمر.

* * *

في احدىٰ محاضراتي والتي القيتها في مدينة «آبادان»[٢].

---

(١) لقد رأيت البعض من الذين يعيشون الطفولة وهم في التسعين من العمر، قد مشوا وتقدموا بشكل ممتاز ورائع حتى التسعين فلما بلغوها سقطوا في بيت الخلاء.

(٢) من المدن الإيرانية المعروفة، تقع في جنوب إيران على الحدود العراقية الإيرانية، وتطل على نهر شط العرب المعروف والذي يصب في الخليج.

تحت عنوان (سجون الإنسان الأربعة) كنت قد ذكرت بأن الإنسان واقعٌ في أسر أربعة سجون، الأول منها سجن الطبيعة: والتي تصنفنا وتشكلنا على حسب قوانينها فالإنسان هو تلك الإرادة وذلك الأنا الذي يستطيع أن يختار أن يخلق ويبدع أن يفكر ويصنع، والطبيعة تعمل فينا كما تعمل في الموجودات الأخرىٰ من الحيوانات والنباتات فتصفنا وتشكلنا على حسب قوانينها وسننها التي أودعها الله فيها.

السجن الثاني هو سجن التاريخ:

لأن تبعات أحداث الماضي تترك أثرها على شخصية الإنسان وهويته الحاضرة.

السجن الثالث وهو سجن المجتمع:

فالنظام الإجتماعي وطبيعة العلاقات الطبقية والاقتصادية والسياسية الحاكمة على هذا المجتمع والتحولات التي تحدث في داخله تترك آثارها على تكوين الفرد النفسي والذهني.

السجن الرابع وهو أشد السجون وامنعها وهو سجن النفس:

والتي تحبس في داخلها تلك الأنا الإنسانية الحرّة فبالعلوم الطبيعية يمكننا التحرر من أسر الطبيعة وسجنها،

فعندما نحلق بالطائرة، فإننا عملياً قد تحررنا من أسر الجاذبية بينما وبدون الطائرة لا نستطيع أن نقفز إلى ارتفاع أكثر من مترين (كحد وسط)، وعندما نبذل الصحراء إلى أرضٍ عامرة خصبة صالحة للزراعة والسكن، فإننا نكون بذلك قد انتصرنا على الطبيعة، وعندما نكتشف العلاج لمرض معضل مميت فإننا نكون بذلك قد تحكمنا بها.

فكلها أمثلة لنوع من التحرر من أسر الطبيعة ولهذا فإنسان اليوم هو أكثر تحرراً من أسر الطبيعة من إنسان الماضي.

وعلى طريق فلسفة التاريخ وعلم الإجتماع القائم على المنهج العلمي، وكشف القوانين والسنن التاريخية يمكننا وإلى حدٍ ما التحرر من أسر الجبر الإجتماعي والجبر التاريخي (يعني من السجنين الثاني والثالث).

وعلى هذا فبمقدورنا وبواسطة العلوم الطبيعية التحرر من سجن الطبيعة، وعن طريق فلسفة التاريخ التحرر من سجن التاريخ، وعن طريق علم الاجتماع العلمي الاقتصادي السياسي أن نتحرر ونتخلص من سجن المجتمع وأمّا السجن الأكبر والأصعب والذي يستعصى حتىٰ على العلم اختراقه فهو سجن النفس، ولهذا فإننا نجد كيف أن إنسان هذا الزمان استطاع وعن طريق العلم أن يتحرر من السجون الثلاثة السابقة ولكنه =

إلى الآن لا يزال يرزح في غياهب سجن النفس.

هنا لا يمكن التحرر من سجن النفس بالعلم، والذي كان وسيلتنا للتحرر من السجون السابقة، لأن نفس ذلك العالِم الذي يريد أن يسخر العلم للتحرر هو سجين، ولهذا فإننا بحاجة إلى سلطان آخر يحررنا من هذا السجن الصعب؛ إنه العشق، وحده العشق قادر على أن يحررنا من ذلك السجن الرابع.

العشق تلك القدرة الكامنة في أعماق الإنسان، وتلك الروح والنفحة الإلهية التي نفخت فيه.

وذلك الوميض الإلهي الذي يضيء في باطنه، ولكنه انطفأ وتبدد وأصبح نسياً منسياً.

ولهذا كانت رسالة الأنبياء هي التذكير ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾[1] و﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾[2]، إن القرآن والوحي والرسالة كلها ذكر، ماذا يعني ذلك؟

يعني أن الوحي والنبي لا يأتيان بشيء جديد يضيفانه إلى علم الإنسان لأن الله قد أعطىٰ الإنسان كل ما يحتاجه واودع

(١) سورة الغاشية، الآية: ٢١.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٩.

ذلك في فطرته ووجدانه، بل أن الله نفسه ساكن في أعماقه، ولهذا كان دور النبي هو التذكير فقط، لأن الإنسان وفي غمرة انشغاله بما في هذه الدنيا من صراعات وعداوات وتنافس وأحقاد وآمال ولذائذ تافهة دنية، ينسى ويغفل عن هذا القبس والوميض الإلهي المضيء في أعماقه، يغفل عن فطرته في إنسانيته، ثم بعد برهة من الزمن يستيقظ من هذه الغفلة ويتذكر ما نسيه ويدرك أن ما هو فيه من الانشغالات الدنيوية والألم والحسرة على الدنيا لا يعادل عفطة عنز.

ولكن وعندما تنفذ ضربة الوحي والرسالة إلى أعماق وجودك وفكرك، توقظك وتعيد إليك وعيك بنفسك، من أي قومٍ وأهل أنت؟ وأي روحٍ تسكن بين جنبيك؟ وأي أمانة تحمّل على عاتقك؟ وتلميذَ أي تعليم وأي استاذ أنت؟

عندها تتنبه فجأة إلى تلك الجوهرة العظيمة الصافية التي تملكها، والتي أغرقتها بغفلتك وانشغالاتك الدنيوية في مستنقع من القاذورات، وأصبحت كغرابٍ لا يتغذى إلا عليها، وبأي شغفٍ ولذة؟.

عندها تتحرر من أسر نفسك بهذه الضربة الثورية، يتحطم السجن الرابع سجن النفس.

إن هذا السجن لا تحطمه الاستدلالات العقلية المحضة

والمنطق ولا العلوم الطبيعية ولا علم الأعصاب وعلم النفس وعلم الاجتماع والطب وفلسفة التاريخ والفقه، إنه لا يحطمه إلا العشق، العشق الذي يعطي للإيثار معناه، العشق الذي يرقىٰ بالإنسان إلى أعلىٰ درجات وقمم الإخلاص، العشق الذي يبرهن للإنسان على أن إثبات الوجود لا يكون إلا بإنكار الذات، إنها كلماتٌ لا يفهمها إلا العشق ولا يقولها إلا العشق إنها معانٍ لا يتذوقها ولا يفهمها ولا يدركها إلا البصير والعليم والمتذوق للغة العشق، وعلى قول كاريل «**أن كل من يتذوق ويفهم معنىٰ الحب والعشق، يكون درك الله لديه بسهولة شمّه لرائحة الورد، أمّا ذلك الذي لا يعرف من الله إلا ذلك الفهم والدرك العقلي التجريدي فإنه الله يبقىٰ مجهولاً عنده وبعيداً عن متناول دركه**».

والآن حان الوقت لنعطي تعريفاً للمناجاة،

المناجاة «**إنها مظهرٌ وتجلٍ لحالة من الاهتمام والاضطراب الإنساني المحموم، ولسجين لا يزال يرزح في أسر النفس والذات ومدركٌ وواعٍ للاسر والسجن الذي هو فيه، وقد أعياه شوقه وتعطشه للحريَة والنجاة، فالمناجاة هي تجلٍ ومظهر للوحدة وللروح التي تعيش الوحدة، الوحدة بمعنىٰ النأي والابتعاد عن الأحبة لا بمعنىٰ العيش وحيداً فريداً بلا**

صاحب ولا جليس. بمعنىٰ الفراق والبين لا بمعنىٰ العيش بلا أحد. فالإنسان الذي يعيش حالة الوحدة والغربة في سجن الطبيعة وسجن النفس الأضيق منه (والذي تشكل أبعادنا الوجودية جدرانه) أن هكذا إنسان لن يجد طريقاً للنجاة إلا بضربة العشق الثورية، وبحيلة العشق وتأجج حرارة العبادة والطلب العاشق، لأن الإنسان الذي لا يفهم ولا يدرك معنى العشق ولغة العشق، حتىٰ لو خضعت الطبيعة له وأصبح سجاناً لها بعلمه ومعرفته العلمية فإنه يبقىٰ كأي حيوان أسير ذاته ونفسه، ومن المؤسف أننا نعيش في زمنٍ سيء، باتت فيه المعاني التي ترتسم في أذهاننا لدى سماعنا لكلمة الدعاء تمنعنا عن أن ننال المعنىٰ الحقيقي والأصيل له، لقد تعودنا على رؤية أناسٍ إمّا يدعون ولا يعملون وإمّا يعملون ولا يدعون فنحن ندعوا الله ولا نعمل، ندعوه أن يوفقنا وأن يرزقنا سعادة الدارين الدنيا والآخرة وأن يغدق علينا من نعم الدنيا، ويتفضل علينا بالعافية. . . الخ ومع هذا نجد أنفسنا صفر اليدين من كل ذلك، مما يولد لدينا نوع من الاستهانة بالدعاء والتساؤل عن قيمته، كما أننا نرىٰ أولئك الذين يملكون كل ذلك بل وأكثر من ذلك ولكنهم لا يدعون، أن هكذا مفارقات من شأنها أن تولّد الشك وتزلزل اليقين بقيمة الدعاء عند كل بصير بها، ولكننا لم نرىٰ تلك الوجوه النيرة البهية والتي في أوج وعيها

وشعورها وإحساسها بمسؤولياتها، وهمتها العالية في انجاز هذه المسؤوليات، وفي ذروة الفداء والتضحية وقبول الموت في سبيل المبدأ والرسالة، حلقت إلى قمم الشهادة الشامخة، وفي نفس الوقت الذي كانوا فيه مُلهمي الشجاعة والشهامة والفداء والصبر والقدوة في النزال ومقارعة الصناديد من الرجال ومثالاً للنبوغ والتألق؛ نجدهم قمة في الخضوع وقمة في الخشوع، يخرون سجداً وبكياً، خاشعة قلوبهم، متذللين متضرعين مناجين للمعبود ولهين بذكره ودعاءه.

إننا لم نرىٰ هكذا وجوه لندرك مدىٰ الجمال والبهاء الذي يتركه الخشوع والخضوع في الدعاء والعبادة على وجه أولئك الذين ما عبدوا الله خوفاً من ناره ولا طمعاً بجنانه، ولكنهم وجدوه أهلاً للعبادة فعبدوه.

إننا كثيراً ما رأينا أناساً عاجزين ومساكين يدعون، ولكننا لم نلمس هذا البهاء والجمال في وجوههم، وذلك لأن الإنسان إذا كان خائناً فهو في النهاية إنسان ولكن خائن، وأمّا إذا كان عاجزاً ومتملقاً فهو ليس بإنسان في الأصل، وعندها كيف للدعاء أن يكن جميلاً في وجهه؟ إن الدعاء جميلٌ في وجوه رجالٍ من مثل علي عليه السلام الذي يمطر سيفه موتاً، ولسانه نوراً وادعية وتأوهات وعينيه دموعاً زفيرات، وبهذا سمى وعلا

وإلى أعلىٰ ذرىٰ أرتقى، فلا ذاك المفكّر والمتمدن الغربي يدانيه (من أمثال ديكارت) ولا ذاك الحكيم والعارف الهندي الشرقي يوازيه، وانه يبقىٰ كالعقاب المحلق بعيداً بعيداً بجناحين قويين، محلقاً في ما وراء الوجود في ما وراء التاريخ وفي ما ورائنا جميعاً وبأي قدرةٍ ومتانة؛ ومن منا لا يدرك أنه بمقدار ما يكون طلب وتذلل وخضوع وعبودية الإنسان للإنسان أمرٌ قبيحٌ ومُنفّر فإنه كم يكون جميلٌ ولطيف، قيامُ مغرورٍ هو مظهرٌ للقدرة والشجاعة والعنف بالتذلل والخضوع والطلب بعجزٍ والمدح والشكر، أمام القدرات الأخرى

والسر في أن الأول قبيحٌ والأخر جميلٌ مع أن كلاهما نوعٌ من أنواع التذلل والخضوع للأخر، أن تذلل الأول منشأه الضعف والتملق لقدرة الأخر التي يفتقدها بذاته على حين أن الثاني تذلله وخضوعه منشأه العشق والمحبة لا التملق للقدرة لأنه لا تنقصه القدرة في الأصل، فالذي أذله في الحقيقة هو عشقه لا ضعفه، ولهذا كل ما كان الإنسان ذليل العشق والحب كان الهياً أكثر.

في مسير الحياة الإنسانية، كلما ازداد نمو الإنسان العقلي والفكري وازداد التطور التكنولوجي والنمو الاقتصادي وتطورت الأنظمة الاجتماعية، وازداد تحكم الإنسان بقوانين

الطبيعة وازدادت قدرته على تسخيرها لصالح منافعه ومصالحه، كلما انعكس ذلك سلباً على إنسانية الإنسان ولطافة روحه وصفاتها، ليتحول إلى مخلوقٍ أشبه ما يكون بالآلة، متبلد الإحساس والمشاعر لا يتحسس ولا يتذوق المعاني الجميلة، وفي غفلة عما تنطوي عليه أعماقُه من شهدٍ ولذائذ، هي عطايا ونعم غامضة وخفية للحياة الإلهية لهذا الكائن الإنساني، وعلى هذا ينمو الإنسان ويكبر على روح الخشونة والعنف ليتحول إلى موجودٍ لا يعرف إلا لغة القوة والقدرة ولغة الحساب والجمع والضرب، وإذا ما استمر الإنسان في هذا المسير ولم يدرك معنى العشق وتجلياته ولم يتذوق طعم الخضوع والخشوع وانكار الذات أمام العشق والجمال المطلق. فبمقدار ما ينمو عقله وتزداد سيطرته على الطبيعة بمقدار ما يتحول إلى موجود خشن وجاف وآلي وصناعي وليظهر أحياناً على صورة ذئبٍ أعقل من جميع الفلاسفة والعقلاء، وليس من خطرٍ أفظع من هذا يتهدد إنسان هذا العصر.

لقد كان للدعاء والعبادة أثرها البالغ على مر التاريخ ولم يقتصر هذا التأثير على حفظ وابقاء جذوة العشق مشتعلة في الثقافة الإنسانية وفي أعماق الفطرة الإنسانية، وإنما تعديا ذلك ليلعبا دوراً تربوياً عظيماً في التلطيف الدائم لروح الإنسان.

لو تأملنا في تاريخ الحياة البشرية لوجدنا كيف أن قانون الغاب قانون التنازع من أجل البقاء كان هو المسيطر والمشكّل الأساس لذلك التاريخ، ويشهد على ذلك ما شهده تاريخ البشرية ونشهده الأن من صراعات طبقية ووطنية وصراعات عرقية ونزاعات اقتصادية وتحالفات وتكتلات سياسية وتسابق على التسلح والادخار، والاغارة والدمار حتىٰ أن العقل والفكر والتقنيات والمخترعات والمكتشفات الحديثة، وبناء الثقافات والمدنيات جندت جميعها لخدمة هذا المسير.

ولو كان الإنسان يتحرك وفق هذا المسير وعلى ضوء هذه العوامل فقط لكان اليوم أكثر وحشية ودموية من الماضي، بصورة لا يعود فيها لقبح الجريمة والقتل من معنىٰ في حياته، وأن ما نراه اليوم وعلى رغم الجنايات العلنية والتي ترتكب تحت غطاء القانون والشرعية الدولية من قبل القوىٰ الكبرى المسيطرة على العالم، من درك جماهيري واسع في شتى بقاع الأرض، للقيم والمعاني الإنسانية والجماليات الأخلاقية ومن وجدان يقظ ينبض بالحياة، ومن درك لمعاني العشق والمحبة والتضحية والفداء والإيثار والوفاء وتقديم الروح رخيصة في سبيل هذه القيم والمعاني النبيلة إنما سببه العبادة والدعاء اللذان حافظا على روح الإنسان لطيفة وعلى أحساسه رقيقاً وعلى وجدانه حياً يقظاً، يقول أحد الشعراء والكتاب: مع أن كلامه

اصطلاحياً ليس بجيد ولكنه لا يخلو من لطافة في المعنى.

يا أيها الألهة، يا أيها الألهة، عليكم أن تتحسروا كلما رأيتمونا نلتذ بالعبادة، لأنكم لا تستطيعون عبادة أحد، وهذه النعمة ليست من خصائص إلا الإنسان» وحتىٰ الموجودات الأخرى التي لا تدرك معنىٰ الحب محرومة من هذه النعمة، كما أن الألهة محرومة أيضاً لأنهم يُعبدون ولا يقدرون على العبادة، ومحرومون من هذه اللذة الكبيرة» هذا ما قاله هذا الكاتب.

نعم أُريد أن أقول لو أننا نستطيع تحرير الدعاء من بين مخالب أولئك الناس العاجزين ـ العاجزين في الحياة ـ اولئك الذين يفرون هاربين من تحمل مسؤولياتهم، أولئك الذين يسعون جاهدين وعن طريق التظاهر بالدعاء إلى اتباع مركبات النقص والعجز واللذائذ التي حرموها بكسلهم وتقاعسهم، وأن ننظر للدعاء ضمن الإطار الإسلامي وضمن إطار آل البيت، تلك الوجوه العظيمة، كالإمام السجاد والإمام علي وأبنائه اللذين أوجدوا تلك القدرة العظيم في التاريخ. وتلك الثورة العظيمة في البشرية وذلك النضال والجهاد والكفاح الصبور الدائم، وتلك الطاقة المتفجرة في العالم وخلفوا لنا أفضل وأجمل كلام، يقوله عبدٌ لمعبوده وعاشق لمعشوقه عبر أدعية ومناجاة تلهب القلب بالشوق والعشق، عندها ستدركون معنى

كلامي أن الدعاء كان عاملاً مهماً في تلطيف الروح الإنسانية على مر التاريخ، يعني كما أن العقل[١] كان العامل الأساسي في إيجاد هذه المدنية في المجتمعات البشرية واوجد المجتمع المتمدن والمتحضر، كذلك العشق[٢] كان من أهم العوامل في إيجاد الإنسان المتمدن والمتحضر، فالمجتمع المتمدن غير الإنسان المتمدن والمتحضر، لأننا أحياناً قد نجد أناساً متمدنين ومتحضرين لم يلد التاريخ مثلهم وقد نشأوا وصُنعوا في مجتمعات ترزح في غياهب الظلم والجهل والخرافة، كمجتمع الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي وأحياناً نجد في أكثر المجتمعات تمدناً وتحضراً والتي وصلت في تمدنها إلى درجة باتت تحكم فيها العالم. نجدها تفرز وتربي للبشرية أناساً وحشيين متعطشين للدماء، لا أقصد بأولئك الوحشيين والمجرمين، أولئك الناس العاديون الذين يعربدون في شوارع ـ وال ستريت ـ ويرتكبون أنواع الجرائم المختلفة، لأن هؤلاء ليسوا أكثر من أناس سيىء الحظ، إن هؤلاء ليسوا مظهراً للجرم والجناية، لأنه يكفي لإصلاحهم تشكيل المحاكم أو إعادة النظر في الوضع الإجتماعي وإصلاح الخلل فيه؛ ولكن

(١) أن العلم هو المظهر والتجلي الخارجي للعقل.

(٢) كما أن العبادة والمناجاة هما التجلي والمظهر الخارجي للعشق (الحب الإلهي).

المظهر الحقيقي للإجرام والجناية هي تلك القوىٰ التي تدير وتسيّر التاريخ وتبرمج وتخطط لمصير البشرية المستقبلي وترسم معالم جيل الغد من الآن؛ لقد رأيت أولئك النوابغ الذين يتحكمون بمصير الإنسان المتمدن، حتى أن أحد المفكرين الغربيين المنوري الفكر ينقل عن أحد الرؤساء الغربيين مستنداً بقوله بأن معدل الجريمة في كل من أميركا وانكلترا وفرنسا قد ارتفع كثيراً بصورة مخيفة، في حال أنهم ينسون أن المجرم الحقيقي والجاني الوحيد هو نفس هذا القائل وكل هذه الجرائم إلا سيئة من سيئات هذا السيد إنهم مظهرٌ آخر من مظاهر الجريمة بل أخطرها على الإطلاق وقد نشأوا وترعرعوا في قلب هذا المجتمع المتحضر والمتمدن، نعم لقد كان العقل أهم عوامل نمو التمدن والتحضر الإجتماعي وعن طريق العلم ـ الذي يعتبر من تجليات العقل ـ وجد المجتمع المتمدن، وكان العشق يؤدي دوره في إيجاد الإنسان المتمدن المتسامي ذو الروح الكبيرة، والتي تكبر أحياناً لتطغى على كل الوجود كل الطبيعة، تلك الروح التي نجدها في شخصيةٍ مثل (علي عليه السلام)، تلك الروح التي ضاق بها وجودها في بدنه الضيق، فراحت ترفرف مضطربة تضرب بأجنحتها اسواره محاولةً أن تحطمها لتجد لها طريقاً إلى الخلاص، والانعتاق من الأسر.

نعم إن العشق أحياناً يصل بالروح إلى هذه الدرجات من اللطف والصفاء، فالعبادة والدعاء هي تجليات للعشق والحب الإلهي.

أُريد أن أقرأ عليكم بعض جمل الصحيفة السجادية دون انتقاء سبق لإشير إلى عدة أمور:

أولاً: ليس الدعاء مجرد وسيلة خالية بذاتها من أي معنىٰ أو محتوى، الغاية منها هو الحصول على شيء ما من الله.

ثانياً: ليس الدعاء بمثابة وسيلة نستعيض بها عن تحمل مسؤولياتنا العقلية والإنسانية.

ثالثاً: في إطار التشيع العلوي والذي يعتبر مثالاً لمدرسة الدعاء، وفي رحاب مدرسة الإمام السجاد زين العابدين باني هذه المدرسة في تاريخنا ومجتمعنا وثقافتنا، يعتبر الدعاء مدرسة لتجلي العشق، وللتعرّف على العالم الواسع وحاجات الإنسان الكبرىٰ.

رابعاً: الدعاء وسيلة للجهاد والمبارزة مع المفاسد الإجتماعية في وضعية اجتماعية غير سليمة.

على كل حال ما أُريده هو قراءة بعض[١] الجمل من أول

(١) وذلك لأن الفرصة لا تسمح بقراءته كلّه، ولكن أوصيكم بقراءة الدعاء (٤٧) من الصحيفة (دعاء عرفة) والصفحات (٨٧ و٨٨ و٩٤) منها.

أدعية الصحيفة السجادية وبدون أي انتقاء مسبق لكي تتضح أمامنا هذه الحقيقة وهي أن أُسلوب التكلم في الصحيفة يختلف شيئاً يسيراً عن اسلوب التكلم الرائج بين الداعين وقراء الدعاء منا، يختلف شيئاً يسيراً مقداره ما بين السماء والأرض.

في وقت سابق وعندما كنت أتحدث عن الدعاء كنت قد تطرقت إلى موضوع الضمائر في أدعية الصحيفة السجادية، وذكرت ما يحتاجه الإنسان حال الدعاء، ورأينا كيف أن الإمام، كلما أراد أن يتحدث عن نفسه أو يطلب شيئاً لها، كان يستخدم الضمائر وكلما أراد مخاطبة الله كان يستعمل الكلمات، وكنت قد بينت الطريقة التي علينا أن نتعامل بها مع هذه الأمور جميعاً وتبيناً واستنتاجاً، وكنت قد ذكرت أن الإنسان تارة يسأل الله أحساناً وتفضلاً، وتارةً يسأله ثواباً على عمل ما، وتارة يسأله تذللاً وخضوعاً وفقراً ومن أجل المغفرة والعفو فقط.

ولكن الشيء الملاحظ في أدعية الصحيفة السجادية أن الإمام عندما يريد التكلم عن العجز والمسكنة والذل والفقر الذاتي وأمثال هذه الحالات في الداعي يستخدم ضمير المتكلم ـ أنا ـ وعندما يريد من الله شيئاً ما مثل النجاة والفلاح والصلاح أو الخير والتوفيق إلى النعم يستخدم كلمة (لنا).

وعندما يطلب من الله الإحسان والفضل الوافر والكثير يستخدم كلمة وضمير (هم، المسلمين) أي أنه يخرج نفسه جانباً. ولقد لفت انتباهي أن يكون هذا الأمر دالٌ على الظرف الحياتي والاجتماعي الخاص الذي عاش فيه الإمام، خصوصاً ذلك المنظر المهيب والفظيع، الذي وقع أمام عينيه في كربلاء ـ والذي لم يتعرض لمثله أنسانٌ في سني شبابه الأولىٰ ـ لا شك أن هذه المصيبة بقيت تثقل كاهل الإمام عليه السلام طوال عمره الشريف، والمتتبع لحياة الإمام يلحظ كيف أن عاشوراء كانت حاضرة دائماً في وجدان وقلب الإمام بحيث أن أدنىٰ حركة كانت تُخطر في الذهن ذكراها وتثير في الإمام حزناً وتُجري من مآقيه دمعاً، خصوصاً وأن الإمام السجَّاد كان يعيش في مرحلة صعبة لم تتوفر له فيه الإمكانات التي توفرت لغيره من الأئمة، حيث أحكم يزيد وعبد الملك من بعده قبضتاهما على الحكم واخمدا جميع الحركات والقلاقل والثورات المناهضة لهما صغيرها وكبيرها وضرباها بقوة، مما جعل الإمام يبقىٰ في الساحة وحيداً فريداً حتىٰ الشهادة لا يستطيعها، فالشهادة (هي عملية جهادية يقوم بها الإنسان المؤمن الواعي والعارف بمسؤولياته ضد الجور والظلم في مرحلة لا تتوفر فيها مقومات الجهاد الجماعي).

فطالب الحق في الإسلام لا تسلب عنه المسؤولية،

عندما لا تتوفر عناصر الجهاد والمحاربة المنظمة في صراعه مع الظالمين.

بل يبقىٰ مسؤولاً وعليه استخدام تكتيكات اخرىٰ في المواجهة كسلاح الشهادة بشرط أن يستخدم هذا السلاح بشكل واعٍ ومدروس بحيث يؤتي ثماره إلا أن يندفع إلى الموت دون تخطيط فيذهب دمه رخيصاً دونما أي أثر،

والإمام السجادعليه السلام كان يعيش في ظروف خاصة سلبته حتىٰ إمكانية الاستشهاد والموت المدروس بما يخدم الرسالة والأهداف الكبرىٰ، فالعناصر التي توفرت لأبيه من قبل لم تتوفر له، وأن هكذا ظروف صعبة لا يستطيع فيها الإنسان حتىٰ الموت والاستشهاد في سبيل الأهداف والرسالة، ويرىٰ أمام عينيه الجور والظلم والإنحراف والفساد يستشري ويطغى، إن هكذا ظروف من شأنها أن تحرق الروح في أتون العذابات والآلام وأي روح؟ روحٍ كروح السجاد تلك الروح الصافية الزلال؛ ولهذا تجلىٰ هذا الألم والحزن في كلماته وأدعيته ومناجاته في صحيفته، لأنه كلام إنسانٍ يحمل آلام وهموم رسالة وأمة بأكملها، كلامٌ يخرج من قلب كسير وروح معذبة متألمة، إن ما قلناه إلى الآن ما هو إلا تحليل ظاهري للمسألة، وهناك أشياء كثيرة لا يمكن الوصول إليها بالتحليل المنطقي

والعلمي ولا يمكن نقلها، ولو نظرنا إلى أوّل أدعية الصحيفة وتأملناه من بدايته إلى نهايته، ودققنا في الأمور التي أكد عليها الدعاء وأرادها الإمام من الله، لوجدنا الإمام يركز على الجانب التعليمي أكثر من طلب الحاجات والمسائل، يعني أن كتاب الدعاء هذا لم يكن وسيلة لطلب الحاجات وإنما كان كتاب تعليم وتربية.

لقد كان كتاباً فلسفياً لتبيين حقيقة الإنسان والخالق وعلاقة الإنسان بهذا الخالق وعلاقة هذا الإنسان بكل العالم من حوله ولما يجب أن تكون عليه حركة الإنسان في هذه الحياة وحسب تعبير سارتر: (تبيين الوضعية الإنسانية). أي وضعي أنا الإنسان وسط هذه العوامل والظروف التي أحيا فيهما، أن هكذا أُسلوب في التعليم يجمع بين العمق واجمل حالات الفرد، اسمه (الدعاء)، وأمّا إذا تبنَّينا المعنىٰ العادي والمتعارف للدعاء، فإن هذا الكتاب لن يكون كتاب دعاء، وإنما سيكون كتاباً للتعليم العلمي والفلسفي والأخلاقي.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الأَوَّلِ بِلاَ أَوَّلٍ كَانَ قَبْلَهُ، وَالآخِرِ بِلاَ آخِرٍ يَكُونُ بَعْدَهُ، الَّذِي قَصُرَتْ عَنْ رُؤْيَتِهِ أَبْصَارُ النَّاظِرِينَ، وَعَجَزَتْ عَنْ نَعْتِهِ أَوْهَامُ الْوَاصِفِينَ، ابْتَدَعَ بِقُدْرَتِهِ الْخَلْقَ ٱبْتِدَاعاً، وَاخْتَرَعَهُمْ عَلَى مَشِيَّتِهِ ٱخْتِرَاعاً، ثُمَّ سَلَكَ بِهِمْ

طَرِيقَ إِرَادَتِهِ، وَبَعَثَهُمْ فِي سَبِيلِ مَحَبَّتِهِ، لاَ يَمْلِكُونَ تَأْخِيراً عَمَّا قَدَّمَهُمْ إِلَيْهِ وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَقَدُّماً إِلَى مَا أَخَّرَهُمْ عَنْهُ، وَجَعَلَ لِكُلِّ رُوْحٍ مِنْهُمْ قُوتاً مَعْلُوماً مَقْسُوماً مِنْ رِزْقِهِ، لاَ يَنْقُصُ مَنْ زَادَهُ نَاقِصٌ، وَلاَ يَزِيدُ مَنْ نَقَصَ مِنْهُمْ زَائِدٌ، ثُمَّ ضَرَبَ لَهُ فِي الْحَيَاةِ أَجَلاً مَوْقُوتاً، وَنَصَبَ لَهُ أَمَداً مَحْدُوداً، يَتَخَطَّىٰ إِلَيهِ بِأَيَّامِ عُمُرِهِ وَيَرْهَقُهُ بِأَعْوَامِ دَهْرِهِ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَقْصَىٰ أَثَرِهِ وَاسْتَوْعَبَ حِسابَ عُمُرِهِ، قَبَضَهُ إِلَى مٰا نَدَبَهُ إِلَيْهِ مِنْ مَوْفُورِ ثَوَابِهِ أَوْ مَحْذُورِ عِقَابِهِ، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ عَدْلاً مِنْهُ تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ وَتَظَاهَرَتْ آلاؤُهُ ﴿لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَوْ حَبَسَ عَنْ عِبَادِهِ مَعْرِفَةَ حَمْدِهِ عَلَى مَا أَبْلاَهُمْ مِنْ مِنَنِهِ الْمُتَتَابِعَةِ، وَأَسْبَغَ عَلَيْهِمْ مِنْ نِعَمِهِ الْمُتَظَاهِرَةِ، لَتَصرَّفُوا فِي مِنَنِهِ فَلَمْ يَحْمَدُوهُ، وَتَوَسَّعُوا فِي رِزْقِهِ فَلَمْ يَشْكُرُوهُ، وَلَوْ كَانُوا كَذَلِكَ لَخَرجُوا مِنْ حُدُودِ الإِنْسَانِيَّةِ إِلَى حَدِّ الْبَهِيمِيَّةِ، فَكَانُوا كَمَا وَصَفَ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ: ﴿إِنْ هُمْ إِلاّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا عَرَّفَنٰا مِنْ نَفْسِهِ، وَأَلْهَمَنَا مِنْ شُكْرِهِ وَفَتَحَ لَنَا مِنْ أَبْوَابِ الْعِلْمِ بِرُبُوبِيَّتِهِ، وَدَلَّنَا عَلَيْهِ مِنَ الإِخْلاَصِ لَهُ فِي

تَوْحِيدِهِ، وَجَنَّبَنَا مِنَ الإلْحَادِ وَالشَّكِّ فِي أَمْرِهِ، حَمْداً نُعَمَّرُ بِهِ فِيمَنْ حَمِدَهُ مِنْ خَلْقِهِ، وَنَسْبِقُ بِهِ مَنْ سَبَقَ إِلَى رِضَاهُ وَعَفْوِهِ، حَمْداً يُضِيءُ لَنَا بِهِ ظُلُمَاتِ الْبَرْزَخِ وَيُسَهِّلُ عَلَيْنَا بِهِ سَبِيلَ الْمَبْعَثِ، وَيُشَرِّفُ بِهِ مَنَازِلَنَا عِنْدَ مَوَاقِفِ الأَشْهَادِ يَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴿يَوْمَ لاَ يُغْنِي مَوْلىً عَنْ مَوْلىً شَيْئاً وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ حَمْداً يَرْتَفِعُ مِنَّا إِلَى أَعْلَى عِلِّيِّينَ فِي كِتَابٍ مَرْقُومٍ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ، حَمْداً تَقَرُّ بِهِ عُيُونُنَا إِذَا بَرِقَت الأَبْصَارُ، وَتَبْيَضُّ بِهِ وُجُوهُنَا إِذَا اسْوَدَّتِ الأَبْشَارُ، حَمْداً نُعْتَقُ بِهِ مِنْ أَلِيمِ نَارِ ٱللَّهِ إِلَى كَرِيمِ جِوٰارِ ٱللَّهِ، حَمْداً نُزَاحِمُ بِهِ مَلاَئِكَتَهُ الْمُقَرَّبِينَ وَنُضَامُّ بِهِ أَنْبِياءَهُ الْمُرْسَلِينَ فِي دَارِ الْمُقَامَةِ الَّتِي لاَ تَزُولُ، وَمَحَلِّ كَرَامَتِهِ الَّتِي لاَ تَحُولُ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي ٱخْتَارَ لَنَا مَحَاسِنَ الْخَلْقِ، وَأَجْرَىٰ عَلَيْنَا طَيِّبَاتِ ٱلرِّزْقِ، وَجَعَلَ لَنَا ٱلْفَضِيلَةَ بِالْمَلَكَةِ عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ، فَكُلُّ خَلِيقَتِهِ مُنْقَادَةٌ لَنَا بِقُدْرَتِهِ وَصَآئِرَةٌ إِلَى طَاعَتِنَا بِعِزَّتِهِ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَغْلَقَ عَنَّا بَابَ الْحَاجَةِ إِلاَّ إِلَيْهِ، فَكَيْفَ نُطِيقُ حَمْدَهُ أَمْ مَتىٰ نُؤَدّي شُكْرَهُ لا، مَتىٰ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَكَّبَ فِينَا آلاتِ الْبَسْطِ، وَجَعَلَ لَنَا أَدَوَاتِ الْقَبْضِ، وَمَتَّعَنَا بِأَرْوٰاحِ الْحَيٰاةِ، وَأَثْبَتَ فِينَا جَوَارِحَ الأعْمَالِ، وَغَذَّانَا

بِطَيِّبَاتِ الرِّزْقِ، وَأَغْنٰانَا بِفَضْلِهِ، وَأَقْنٰانَا بِمَنِّهِ، ثُمَّ أَمَرَنَا لِيَخْتَبِرَ طٰاعَتَنَا وَنَهَانَا لِيَبْتَلِيَ شُكْرَنَا، فَخَالَفْنَا عَنْ طَرِيقِ أَمْرِهِ وَرَكِبْنٰا مُتُونَ زَجْرِهِ، فَلَم يَبْتَدِرْنٰا بِعُقُوبَتِهِ وَلَمْ يُعَاجِلْنَا بِنِقْمَتِهِ، بَلْ تَأَنَّانٰا بِرَحْمَتِهِ تَكَرُّماً وَانْتَظَرَ مُراجَعَتَنَا بِرَأْفَتِهِ حِلْماً. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي دَلَّنَا عَلَى ٱلتَّوْبَةِ الَّتِي لَمْ نُفِدْهَا إِلاَّ مِنْ فَضْلِهِ، فَلَوْ لَمْ نَعْتَدِدْ مِنْ فَضْلِهِ إِلاَّ بِهَا، لَقَدْ حَسُنَ بَلآؤُهُ عِنْدَنَا وَجَلَّ إِحْسَانُهُ إِلَيْنَا وَجَسُمَ فَضْلُهُ عَلَيْنَا، فَمَا هٰكَذَا كَانَتْ سُنَّتُهُ فِي التَّوْبَةِ لِمَنْ كَانَ قَبْلَنَا، لَقَدْ وَضَعَ عَنَّا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ، وَلَمْ يُكَلِّفْنَا إِلاَّ وُسْعاً، وَلَمْ يُجَشِّمْنَا إِلاَّ يُسْراً، وَلَمْ يَدَعْ لِأَحَدٍ مِنَّا حُجَّةً وَلاَ عُذْراً، فَالْهَالِكُ مِنَّا مَنْ هَلَكَ عَلَيْهِ وَالسَّعِيدُ مِنَّا مَنْ رَغِبَ إِلَيْهِ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ بِكُلِّ مَا حَمَدَهُ بِهِ أَدْنَى مَلآئِكَتِهِ إِلَيْهِ وَأَكْرَمُ خَلِيقَتِهِ عَلَيْهِ وَأَرْضَىٰ حَامِدِيهِ لَدَيْهِ، حَمْداً يَفْضُلُ سَآئِرَ الْحَمْدِ كَفَضْلِ رَبِّنٰا عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ. ثُمَّ لَهُ الْحَمْدُ مَكَانَ كُلّ نِعْمَةٍ لَهُ عَلَيْنَا وَعَلى جَمِيع عِبَادِهِ الْمَاضِينَ وَالْبَاقِينَ، عَدَدَ مَا أَحَاطَ بِهِ عِلْمُهُ مِنْ جَمِيعِ الأَشْيَاءِ، وَمَكَانَ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا عَدَدُهَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً أَبَداً سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، حَمْداً لاَ مُنْتَهى لِحَدِّهِ وَلاَ حِسَابَ لِعَدَدِهِ، وَلاَ مَبْلَغَ لِغَايَتِهِ وَلاَ انْقِطَاعَ لِأَمَدِهِ. حَمْداً يَكُونُ وُصْلَةً إِلَى طَاعَتِهِ

وَعَفْوِهِ، وَسَبَباً إِلَى رِضْوَانِهِ، وَذَرِيعَةً إِلَى مَغْفِرَتِهِ، وَطَرِيقاً إِلَى جَنَّتِهِ، وَخَفِيراً مِنْ نِقْمَتِهِ، وَأَمْناً مِنْ غَضَبِهِ، وَظَهِيراً عَلَى طَاعَتِهِ، وَحَاجِزاً عَنْ مَعْصِيَتِهِ، وَعَوْناً عَلَى تَأْدِيَةِ حَقِّهِ وَوَظَائِفِهِ. حَمْداً نَسْعَدُ بِهِ فِي ٱلسُّعَدَآءِ مِنْ أَوْلِيَآئِهِ، وَنَصِيرُ بِهِ فِي نَظْمِ الشُّهَدَآءِ بِسُيُوفِ أَعْدَآئِهِ، إِنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيدٌ.

* * *

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الأَوَّلِ بِلاَ أَوَّلٍ كَانَ قَبْلَهُ»

جمالُ العبارة، وموسيقىٰ الكلام، ولطافة الكلمات التي انتقاها الإمام في دعاءه، مسائل يجب أن تبحث بدقة، ولأن الفرصة لا تسمح بذلك، سنترك هذا الأمر ونكتفي بإشارة مجملة لمعاني هذه العبارات والجمل لتكون نموذجاً موضحاً لما سبق وذكرناه.

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الأَوَّلِ بِلاَ أَوَّلٍ كَانَ قَبْلَهُ، وَالآخِرِ بِلاَ آخِرٍ يَكُونُ بَعْدَهُ»

تأملوا في هذه التعابير إنه لشيءٌ عجيب حقاً، فمع أن اللغة والأدب العربي لم يدخلا مرحلة التدوين والكتابة إلا في القرنين الثاني والثالث الهجريين، ومع أن المصطلحات الفلسفية والعقلية والتعابير الأدبية لم تصل إلى نضجها إلا في

تلك الفترة، نجد الصحيفة السجادية والتي كتبت في النصف الثاني من القرن الأول الهجري، قد وصلت في ذلك إلى الأوج، راجعوا كتب تاريخ الأدب والفلسفة العربية، لتتحققوا من ذلك بأنفسكم.

الحمد لله الأول بلا أول كان قبله، والآخر بلا آخر يكون بعده، ضمن ذلك الجو، خذوا بعين الاعتبار إنساناً انجز جميع أعماله وقام بجميع المسؤوليات الملقاة على عاتقه على أتم وجه، ولكنه وبدل أن يفتر ويتكبر وهذا شأن القادة دائماً نجده يتحدث بهذا الخضوع والتذلل، فهناك من القادة من يعتمد على إرادته الإنسانية فحسب. ومنهم من يتكيء ويعتمد على الغيب والإرادة الغيبية.

القسم الثاني منهم والذين يعتمدون على الإرادة الغيبية فقط ينشأون ضعافاً وعلى صورة أناسٍ عاجزين وبدائيين من الناحية الاجتماعية، تأملوا في حياة أتباع الأديان التي تركز على الجانب المعنوي كأمثال التصوف والاشراق الهندي والبوذي.

وأمّا أولئك الذين يقدسون العقل والإرادة ويعتبرونهما المحور في حياتهم، يتحولون إلى فراعنة وجبارين إذا ما دانت لهم الأمور، يقول نابليون «**عندي، كل مستحيل ممكن، كل شيءٍ ممكن أمام إرادتي**».

انظروا إلى هذا القول المتوحش المتغطرس إلى أين تصل به الأمور، ويقول تروتسكي الشيوعي «إذا الشمس لم تجري وفق مرادي ورغبتي أُركعها» ولكن الأمر لم يدم طويلاً حتى ركع هو نفسه، إن هكذا أشخاص ينشأون على هذه الروحية من التكبر والتفرعن مستعدين وبكل بساطة أن يضحوا بأرواح آلاف الأبرياء لاشباع روح التغطرس والتجبر التي يمتلكونها ولخدمة منافعهم ومصالحهم، لأن أرواحهم قد فقدت ذلك الصفاء وتلك اللطافة التي تجعل الإنسان إنساناً، وأمّا أولئك المشغولون بالسير والسلوك المعنوي فيتحولون إلى أشخاص عالة على المجتمع، عاجزين لا يستطيعون رد الذباب عن وجوههم.

ولو أمكن للروح الإنسانية أن تجمع إلى قدرتها وعظمتها وشجاعتها وبطولتها، صفاء ولطافة وتواضع الروح السجادية لكانت مثلاً ونموذجاً لأكمل صورة إنسانية، ولرأيتها تتكلم بهذا التواضع والخضوع، وهذا ما كنت أعنيه من ذكري الدائم لتلطيف الروح ولطافتها.

الحمد لله الأوّل بلا أوّلٍ كان قبله، والآخر بلا آخرٍ يكون بعده الذي قَصُرت عن رؤيته أبصارُ الناظرين.

أهذا دعاء؟ وإن كان كذلك فما الذي يطلبه الإمام من

الله؟ أم أنه خطابٌ تعليمي تربوي يستهدفني أنا القاريء وأنت الداعي والسامع، خطابٌ ودرس يوضح حقائق فلسفية وعقائدية؟ حتماً إنه خطابٌ ودرس قبل أن يكون دعاء. «**الذي قصرت عن رؤيته أبصارُ الناظرين**» . . .

«**وَعَجَزَتْ عَنْ نَعْتِهِ أَوْهٰامُ الْوٰاصِفِينَ**» . . .

أي عجز عن وصفه ليس فقط (العقل والفكر والمنطق، بل حتى خيال وتوهمات الواصفين.

«**ابْتَدَعَ بِقُدْرَتِهِ الْخَلْقَ ٱبْتِدَاعاً، وَاخْتَرَعَهُمْ عَلَى مَشِيَّتِهِ ٱخْتِرٰاعاً**» . . .

«**ثُمَّ سَلَكَ بِهِمْ طَرِيقَ إِرَادَتِهِ، وَبَعَثَهُمْ فِي سَبِيلِ مَحَبَّتِهِ**» . . .

وعلى عكس ما تصوره الكنائس المسيحية عن الدنيا، وإظهارهم لها على أنها دار الهول والرعب والوحشة ومرتعٌ لظلال الخير والشر، وبأنها موحلة وقذرة، فإن عالم الخلقة وعالم الوجود ومنذ البداية يقومان على أساس نظم واحد وإرادة واحدة وعلى الوضوح والنورانية والحبّ الإلهي (حسب الرؤية الإسلامية).

«**لاَ يَمْلِكُونَ تَأْخِيراً عَمَّا قَدَّمَهُمْ إِلَيْهِ وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَقَدُّماً إِلَى مَا أَخَّرَهُمْ عَنْهُ**» .

أي أن مقادير الأشياء وتربيتها، والنُظُم الحاكمة في هذا الكون كلّها تابعة للإرادة الإلهية، ونحن هنا أمام جبرٍ ينطوي في داخله على اختيار مطلق، وذلك على أساس الرؤية التوحيدية نفسها...

«وَجَعَلَ لِكُلِّ رُوْحٍ مِنْهُمْ قُوتاً مَعْلُوماً مَقْسُوماً مِنْ رِزْقِهِ، لاَ يَنْقُصُ مَنْ زَادَهُ نَاقِصٌ، وَلاَ يَزِيدُ مَنْ نَقَصَ مِنْهُمْ زَائِدٌ»...

«ثُمَّ ضَرَبَ لَهُ فِي الْحَيَاةِ أَجَلاً مَوْقُوتاً»...

ثم جعل لكل موجودٍ ولكل روحٍ وقتاً معلوماً وعمراً محدوداً، ونهاية معينة

«يَتَخَطَّىٰ إلَيهِ بِأَيَّامِ عُمُرِهِ»...

كل شيء في هذا الكون، وكل روح وكل حي يخطو نحو نهايته وأجله الذي ضُرب له وعُين له.

«يَرْهَقُهُ بِأَعْوَامِ دَهْرِهِ»...

ويقترب إلى نهايته ومصيره..

«حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَقْصَىٰ أَثَرِهِ»...

إلى أن يصل في خطاه إلى نهاية الطريق، إلى آخر أثرٍ له إلى نهايته.

«وَاسْتَوْعَبَ حِسابَ عُمُرِهِ، قَبَضَهُ إِلَى مٰا نَدَبَهُ إِلَيْهِ مِنْ مَوْفُورِ ثَوَابِهِ أَوْ مَحْذُورِ عِقَابِهِ» . . .

إنها مصائر جميع الموجودات.

«لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَآؤُوا بِمَا عَمِلُوا» . . .

إنها آية قرآنية قد أدرجت في الدعاء.

«وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى» . . .

إن هذا الخلق والإيجاد والإبداع، وتقدير مقادير الأشياء وتحديد ويقين أجالها وأعمارها، وخلق جميع الأشياء وتحديد مسارها، وجعلها تابعة للمشيئة الإلهية

كل هذه الأمور لأجل ماذا؟

لأجل أن يُجزى الذين اساؤوا وعملوا السيئات بالجزاء السيء، والذين احسنوا، وعملوا الحسنات والصالحات بالجزاء الحسن.

إذاً فالإمام كان في معرض تبيين الفلسفة الغائبة للخلقة ولم يكن في معرض طلب شيء خاص معين.

«عَدْلاً مِنْهُ» . . . أي على أساس العدل والحساب الدقيق.

«تَقَدَّسَتْ أَسْمَآؤُهُ وَتَظَاهَرَتْ آلاؤُهُ» . . .

تقدّست أسماؤه، وبانت وظهرت جميع نعمه وعطاياه.

«لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ» . . .

«وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَوْ حَبَسَ عَنْ عِبَادِهِ مَعْرِفَةَ حَمْدِهِ عَلَى مَا أَبْلاَهُمْ مِنْ مِنَنِهِ الْمُتَتَابِعَةِ، وَأَسْبَغَ عَلَيْهِمْ مِنْ نِعَمِهِ الْمُتَظَاهِرَةِ، لَتصرَّفُوا فِي مِنَنِهِ فَلَمْ يَحْمَدُوهُ، وَتَوَسَّعُوا فِي رِزْقِهِ فَلَمْ يَشْكُرُوهُ، وَلَوْ كَانُوا كَذَلِكَ لَخَرَجُوا مِنْ حُدُودِ الإِنْسَانِيَّةِ» . . .

إن هذا الحمد لهو العبادة ذاتها، لهو التجلي الخالص للعشق. إنه الحمد الذي يُحرّم على الإنسان أن يُجري على لسانه مدحٌ أو ثناءٌ لغير الله، لأنه شرك، فالكلام هنا على الوعي والشعور الإنساني، عن النضج الإنساني، وعن الأخلاق والفضيلة الإنسانيّة ثم يحمد الله ويشكره، ولكن على أي النعم يشكره؟

إنه يشكر الله على إلهامه الإنسان الشكر على النعم والعطايا، يشكره على أنه زوّد الإنسان بهذه المعرفة التي تميّزه عن الحيوانات، ولو أن اللهسلب الإنسان القدرة على الشكر بسلبه هذه المعرفة منه، عندها ما الذي يحدث؟

إن الإنسان سيبقىٰ يستلذ بهذه النعم وسيأكل ويشرب

ويستمتع بأنواع اللذائذ، ولكن تماماً كاستمتاع الحيوانات والبهائم، التي تأكل وتشرب وتنام ولا تشكر الله على هذه النعم.

«وَتَوَسَّعُوا فِي رِزْقِهِ فَلَمْ يَشْكُرُوهُ»...

وهكذا سيتقلب الإنسان ويرتفع بين النعم دون أن يشكر الرازق والمعطي، ولو حدث ذلك، فهذا يعني خروج الإنسان عن إطار الإنسانية وسقوطه في مهاوي الحيوانية، ليتحول إلى بهيمة إلى حيوان، لا يعرف معنىٰ الشكر، فالشكر على النعمة والعطاء هو ردُ فعلٍ ونتيجة طبيعية للوعي والمعرفة والإدراك، إدراك الذات، وإدراك النعمة، وأن هناك منعم، وأن لا بد من شكره على هذه النعمة. وهذا الإدراك والوعي والشعور هو الذي يميز الإنسان عن الحيوان فإن سلبت منه هذه المعرفة وهذا الإدراك تحول إلى حيوان.

«فَكَانُوا كَمَا وَصَفَ فِي مُحْكَم كِتَابِهِ»....

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾

«وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا عَرَّفَنَا مِنْ نَفْسِهِ، وَأَلْهَمَنَا مِنْ شُكْرِهِ وَفَتَحَ لَنَا مِنْ أَبْوَابِ الْعِلْمِ بِرُبُوبِيَّتِهِ»...

من ناحية تربوية وتعليمية، أنه لمن أفضل أساليب التربية

والتعليم، استبدل اسلوب الأمر باسلوب الوصف، فبدل أن تمطر الطفل بوابل من الأمر والنهي أفعل هذا ولا تفعل هذا، حاول أن تصف له الشخص الذي يقوم بالعمل الفلاني، والشخص الذي لا يفعله.

أي أن تتحدث إليه بجملٍ خبريه بوصيفية، بدل أن تكلمه بجملٍ إنشائية امريّة. . . لئلا يجد نفسه مأموراً، بل ليجد نفسه إنساناً في حالة تلقي لعلم وحقائق جديدة عليه. ولهذا نجد الإمام هنا يشكر الله على أنه وهب الإنسان نعمة الشكر على النعم، وعلى أنه لم يحرمنا من هذه النعمة، وإلا كنا كالحيوانات فبدل أن يستعمل لغة الأمر في النصيحة (أن يا بني آدم اشكروا النعمة تزدادوا، وإن لم تفعلوا كنتم كالحيوانات والأنعام بل أضل سبيلاً، ولذا عليكم بالشكر.

فبدل لغة الأمر هذه استعمل أسلوباً أخر في البيان يقول: «**اشكرُ الله وأحمده، وانه لمن المسلمات أن أشكر الله، ثم يتحدث بعد ذلك عن قيمة شكرنا وحمدنا فيقول، إنها لنعمة عظيمة تلك التي وهبنا إياها الله ألا وهي نعمة الحمد، ومعرفة الحمد والشكر على النعم.**

فلا نجد في كلامه أي نوع من الأمر أو الفرض، وإنما استخدم الاسلوب الغير مباشر في بيان أهمية الشكر والحمد

وذلك لكي لا يشعر الطرف المقابل بأنه مأمور، بل يشعر بأنه في حالة تلقي لحقائق وعلم جديد ينبهه إلى مواطن الضعف في ذاته ويسوقه إلى تقويتها إرادياً لا بالفرض والاكراه، وهذا أفضل أنواع التعليم والتربية».

«التعليم الغير مباشر»

«وَدَلَّنَا عَلَيْهِ مِنَ الإِخْلاَصِ لَهُ فِي تَوْحِيدِهِ»...

فبدل أن يأمرنا بشكل مباشر، أنْ عليكم أن ترقوا وتصلوا في توحيدكم إلى قمة الإخلاص وأن يكون هذا التوحيد خالص لله. يقول: أشكرُ الله الذي أوصلنا إلى الاخلاص في توحيده ودلنا وهدانا إلى الإخلاص فيه، فإنه يتبع الاسلوب الغير مباشر في التعليم.

«وَجَنَّبَنَا مِنَ الإلْحَادِ وَالشَّكِّ فِي أَمْرِهِ»...

وأبعدنا عن الشك والإلحاد في أمره وحكمه وحكومته.

«حَمْداً نُعَمَّرُ بِهِ فِيمَنْ حَمِدَهُ مِنْ خَلْقِهِ»...

هنا نجد الإمام يعرض لمسابقة، مسابقة بين المخلوقات الحامدة لله الشاكرة له، مسابقةُ الحمد والشكر والعبادة وليس في معرض بيان تلك المسألة المسلمة وهي أن علينا أن نمضي حياتنا بالحمد والشكر والعبادة لأن هذا الأمر من المسلمات

ولا يستحق الذكر، وإنما الحديث عن التسابق في ذلك، التسابق في الحمد والشكر والعبادة.

حمداً نعمّر به أي أننا نعيش مع هذا الحمد وهذا الشكر وهذه العبادة ونمضي عمرنا كله مع الحمد والشكر وبين المخلوقات التي تحمد الخالق وتشكره.

«وَنَسْبِقُ بِهِ مَنْ سَبَقَ إِلَى رِضَاهُ وَعَفْوِهِ». . .

حمداً اتقدم به اسبق به جميع المتسابقين في مضمار الحمد والشكر وعلى طريق تحصيل رضا الله وعفوه.

«حَمْداً يُضِيءُ لَنَا بِهِ ظُلُمَاتِ الْبَرْزَخِ وَيُسَهِّلُ عَلَيْنَا بِهِ سَبِيلَ الْمَبْعَثِ، وَيُشَرِّفُ بِهِ مَنَازِلَنَا عِنْدَ مَوَاقِفِ الأَشْهَادِ»(١) . . .

«يَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ». . .

لقد رأينا ذلك الجبر في أول الخلقة، الحديث هنا مرّة أخرى عن الإنسان وعن الاختيار.

«يَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ». . .

ذلك اليوم الذي يجزى فيه كل إنسانٍ بما كسبه في هذه

---

(١) شرحه لهذه العبارة من الدعاء، لم يكن واضحاً في الشريط الأصلي لرداءة التسجيل، ولهذا اضطررنا لحذفه.

الدنيا، ويحاسب حساباً عادلاً لا ظلم فيه ولا جور أي أن مصير كل إنسان من صنع يده.

﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾[1] إن القيامة هي هكذا.

«يَوْمَ لاَ يُغْنِي مَوْلىً عَنْ مَوْلىً شَيْئاً وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ»...

«حَمْداً يَرْتَفِعُ مِنَّا إِلَى أَعْلَى عِلِّيِّينَ»...

لكاريل كلام أشبه ما يكون بهذه الجملة حيث يقول:

«أدعيةٌ تتصاعد نحو السماء، كما تتصاعد الأبخرة المحمومة من قلوب الداعين المصهورة».

ومن سطح الأرض الأسود، مجذوبةٌ نحو منبع المعنوية الأساس في العالم، إنها أحاديث العشق مع الله»...

«حَمْداً يَرْتَفِعُ مِنَّا إِلَى أَعْلَى عِلِّيِّينَ»...

حمداً ينبع من أعماقنا وصميم وجودنا وذاتنا، ليصعد إلى أعلى عليين.

في ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾.

مقاطع من آيات القرآن الكريم.

(١) سورة النبأ، الآية: ٤١.

«حَمْداً تَقَرُّ بِهِ عُيُونُنَا إذَا بَرِقَت الأَبْصَارُ» . . .

حمداً يبعث فينا الفرح والسرور في يومٍ تشخص فيه الأبصار من الخوف والهول والذهول.

«وَتَبْيَضُّ بِهِ وُجُوهُنَا إذَا اسْوَدَّتِ الأَبْشَارُ» . . .

«حَمْداً نُعْتَقُ بِهِ مِنْ أَلِيمِ نَارِ ٱللَّهِ إِلَى كَرِيمِ جِوٰارِ ٱللَّهِ» . . .

حمداً ننجو به من أليم عذاب الله ونيرانه كنجاة العبد وتحرره من العبودية.

«حَمْداً نُزَاحِمُ بِهِ مَلاَئِكَتَهُ الْمُقَرَّبِينَ وَنُضَامُّ بِهِ أَنْبِيَاءَهُ الْمُرْسَلِينَ فِي دَارِ الْمُقَامَةِ الَّتِي لاَ تَزُولُ، وَمَحَلِّ كَرَامَتِهِ الَّتِي لاَ تَحُولُ».

«وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي ٱخْتَارَ لَنَا مَحَاسِنَ الْخَلْقِ، وَأَجْرَىٰ عَلَيْنَا طَيِّبَاتِ ٱلرِّزْقِ» . . .

دائماً يأتي ذكر الأمور المادية والأمور المعنوية.

الخير والروح، القلب والاقتصاد، الحياة المادية والحياة المعنوية، دائماً تأتي متقارنة في صفٍ واحد دون أن يكون هناك أي انفصال بينها.

ولهذا نجد الإمام هنا وبالرغم مما هو فيه من التحلق المعنوي، لا يغفل عن ذكر المسائل والجوانب المادية. حمداً

لله الذي أنعم علينا بأنواع العطايا ومحاسن الخلق أنعم علينا: أي علينا نحن البشر، وليس الكلام عن شخص الإمام أو عائلته، فهو يتكلم مع الله ويتحدث إليه، في مقابل كل الوجود وجميع الموجودات، إنها رؤية كونية بهذه الوساعة.

«وَأَجْرَىٰ عَلَيْنَا طَيِّبَاتِ ٱلرِّزْقِ»...

وأمر لنا بأطهر وأطيب أنواع الرزق والنعم.

«وَجَعَلَ لَنَا ٱلفَضِيلَةَ بِالْمَلَكَةِ عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ»...

بالقدرات واللياقات التي وهبنا إياها والتي بها استطعنا تسخير الطبيعة وما فيها لخدمة منافعنا ومصالحنا **«فَكُلُّ خَلِيقَتِهِ مُنْقَادَةٌ لَنَا بِقُدْرَتِهِ»**...

وبات كل مخلوق منقاداً ومطيعاً لنا بقدرة الله ومننه علينا (إنها عظمة البشرية).

«وَصَآئِرَةٌ إِلَى طَاعَتِنَا بِعِزَّتِهِ»...

وبعزته باتت كل ظاهرة طبيعية مسخرة وطيّعة لنا.

«وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَغْلَقَ عَنَّا بَابَ الْحَاجَةِ إِلاَّ إِلَيْهِ»...

إنها وصايا ودروس على شكل حمدٍ وشكرٍ على النعم التي بين أيدينا، وبدل أن يعلمنا أن نطلب ونسأل ما لا نملك، يتبع هذا الأُسلوب في البيان.

وبدل أن يقول: «لم أرىٰ كلباً طأطأ رأسه وتذلل عند الكلاب الأخرى» أو أن يستعمل لغة الأمر، لا تتملقوا لا تداهنوا، لا تذلوا أنفسكم وتطأطؤا رؤوسكم عند هذا وهذا. . . يستخدم هذا الاسلوب في البيان الاسلوب التعليمي الغير مباشر.

الحمد لله الذي أغلق ، أغلق ماذا؟

عنا باب الحاجة إلا إليه.

لقذ أغلق كل باب في وجهنا ومنعنا أن نطرقة لأنه لا يجوز السؤال والطلب من المحتاجين أمثالنا وحتى لو ذهبت وطلبت شيئاً لن تُعطاه. . لأن الأبواب مغلقة في الأصل.

الحمد لله الذي أغلق عنا باب الحاجة إلا إليه.

إنها جملٌ تربوية تعليمية، إنه لا يطلب شيئاً فكيف نطيق حمده؟ فكيف لنا أن نستطيع تأدية حقه من الحمد؟ أم متىٰ نؤدي شكره؟ ومتىٰ عسانا نؤدي شكره؟

لا ، متىٰ

«وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَكَّبَ فِينَا آلاتِ الْبَسْطِ، وَجَعَلَ لَنَا أَدَوَاتِ الْقَبْضِ، وَمَتَّعَنَا بِأَرْوَاحِ الْحَيَاةِ، وَأَثْبَتَ فِينَا جَوَارِحَ الأعْمَالِ، وَغَذَّانَا بِطَيِّبَاتِ الرِّزْقِ، وَأَغْنَانَا بِفَضْلِهِ، وَأَقْنَانَا بِمَنِّهِ» . . .

معناه تقريباً واضح ومعلوم.

فقد منحنا كل هذه الأمور، الجسم القوي المُصَمَم للعمل، الغذاء والطعام، الفضيلة، الحياة، أدوات القبض والإمساك، أدواب البسط والافلات، كما أنه منحنا القدرة على التحكم بالطبيعة وكل عالم الخلقة وحكمنا بجميع الظواهر وجميع الأشياء في هذا الكون كامتياز للبشر على غيرهم، وزوّدنا بالمعرفة والشعور والوعي، وفتح لنا باب العلم بقدرته، لقد منح الإنسان كل هذه الأمور والأن ماذا؟ المسؤولية...

«ثُمَّ أَمَرَنَا لِيَخْتَبِرَ طَاعَتَنَا»...

ثم أمرنا ليمتحن ويختبرمدىٰ طاعتنا وانصياعنا لأوامره.

«وَنَهَانَا لِيَبْتَلِيَ شُكْرَنَا»...

معىٰ الشكر هنا أعمق وارقىٰ بكثير مما نفهمه من معنى له

«فَخَالَفْنَا عَنْ طَرِيقِ أَمْرِهِ»...

هنا تلم بالإنسان حالات روحية شديدة، نابعة من لوم الإنسان الشديد لنفسه على تقصيرها وتقاعسها،

«وَرَكِبْنَا مُتُونَ زَجْرِهِ، فَلَم يَبْتَدِرْنَا بِعُقُوبَتِهِ»...

ولكن وعلى رغم جميع ما منحنا من النعم، وعلى رغم عصياننا وتقاعسنا عمّا أمرنا به، وارتكابنا لما نهانا عنه.

بالرغم من كل هذا «**فَلَم يَبْتَدِرْنا بِعُقُوبَتِهِ وَلَمْ يُعَاجِلْنَا بِنِقْمَتِهِ**» لم يعجل علينا بالانتقام والغضب «**بَلْ تَأَنَّانا بِرَحْمَتِهِ تَكَرُّماً**» . . .

بل حلُم وجمُل وأعطانا فرصة لنراجع بها أنفسنا وتحمّلنا بكرمه ورحمته التي لا حدود لها.

«**وَانْتَظَرَ مُراجَعَتَنَا بِرَأْفَتِهِ حِلْماً**» . . .

وبقي منتظراً، لعلّنا نؤب إليه تائبين معترفين بخطئنا.

«**وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذي دَلَّنَا عَلَى ٱلتَّوْبَةِ الَّتِي لَمْ نُفِدْهَا إلاَّ مِنْ فَضْلِهِ، فَلَوْ لَمْ نَعْتَدِدْ مِنْ فَضْلِهِ إلاَّ بِهَا، لَقَدْ حَسُنَ بَلآؤُهُ عِنْدَنَا وَجَلَّ إِحْسَانُهُ إِلَيْنا وَجَسُمَ فَضْلُهُ عَلَيْنا، فَمَا هٰكَذَا كَانَتْ سُنَّتُهُ فِي التَّوْبَةِ لِمَنْ كَانَ قَبْلَنَا**» . . .

لقد كانت التوبة في الأديان الأخرىٰ بأن يحرق الشخص نفسه، أو أن ينزع عن بدنه جلده، أو أن ينزعه الأخرون له، أو أن يحرقوه، أو أن يأكل الأخر من لحمه ففي الفلبين، قام أحد النساك والزهاد الذين يعتبرون قمة في الطهارة والقسية وأنهم من أهل الجنان قام بقتل نفسه، ليطعم ملك البلاد الذي يمضي أيامه الأخيرة في هذه الحياة من لحمه، وذلك عسىٰ أن يُقبل توبتُه ويكون من أهل الجنان ولا بد ان تكون توبته قد قبلت!!!

أن هناك أشكال من التوبة في الأديان الأخرىٰ يعجب المرء من شدة قبحها وفظاعتها.

فالإمام هنا يشير إلى هذا الأمر:

«فَمَا هٰكَذَا كَانَتْ سُنَّتُهُ فِي التَّوْبَةِ لِمَنْ كَانَ قَبْلَنَا، لَقَدْ وَضَعَ عَنَّا مَا لاَ طَاقَةَ لَنا بِهِ».

فالتوبة في الأديان الماضية كانت على صورة لا تحتمل ولأننا لا نستطيع احتمال هذه الأنواع من التوبة، خفف الله عنّا **«وَلَمْ يَدَعْ لِأَحَدٍ مِنَّا حُجَّةً وَلاَ عُذْراً»**...

حتى مع ارتكابنا الذنوب والمعاصي ترك الله لنا طريقاً سهلاً يسيراً للرجوع والتطهّر ألا وهو طريق التوبة وذلك لكي لا يبقىٰ لنا عذراً أو حجة نتعلل بها عند ارتكابنا المعاصي.

... **«حَمْداً لاَ مُنْتَهى لِحَدِّهِ وَلاَ حِسَابَ لِعَدَدِهِ، وَلاَ مَبْلَغَ لِغَايَتِهِ وَلاَ انْقِطَاعَ لِأَمَدِهِ. حَمْداً يَكُونُ وُصْلَةً إِلَى طَاعَتِهِ وَعَفْوِهِ، وَسَبَباً إِلَى رِضْوَانِهِ، وَذَرِيعَةً إِلَى مَغْفِرَتِهِ، وَطَرِيقاً إِلَى جَنَّتِهِ، وَخَفِيراً مِنْ نِقْمَتِهِ، وَأَمْناً مِنْ غَضَبِهِ، وَظَهِيراً عَلَى طَاعَتِهِ، وَحَاجِزاً عَنْ مَعْصِيَتِهِ، وَعَوْناً[1] عَلَى تَأْدِيَةِ حَقِّهِ وَوَظَائِفِهِ. حَمْداً نَسْعَدُ بِهِ فِي ٱلسُّعَدَآءِ مِنْ أَوْلِيَآئِهِ»**...

---

(١) لا بديلاً عن تأيدة الحق. (عوناً لا بديلاً).

«فالدعاء ليس بدلاً عن تحمل المسؤوليات وأداء الحقوق والعمل بالوظائف التي على عاتقنا، وليس بمعنى الفرار من تحت ثقل المسؤوليات وصعوبة العمل ومشقته، بل هو عاملٌ مهم في تفتح طاقات الإنسان واستعداداته، وعوناً له على تحمل أصعب المسؤوليات وأشق الأعمال وأضناها ولهذا ستكون نهايته إيصالنا إلى السعادة والعيش مع السعداء» حمداً نسعد به في السعداء من أوليائه».

«وَنَصِيرُ بِهِ فِي نَظْمِ الشُّهَدَآءِ بِسُيُوفِ أَعْدَآئِهِ».

أي يكون هذا الدعاء وسيلة وعاملاً لإيجاد التغيير فينا وتحويلنا إلى أُناسٍ سعداء، موفقين، راضين مرضيين وفي زمرة الشهداء والصدقين «**فِي نَظْمِ الشُّهَدَآءِ بِسُيُوفِ أَعْدَآئِهِ**»

إِنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيدٌ

والسلام

الفهرس